بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

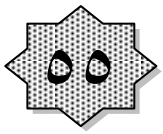

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٥٥ ـ محرم ١٤٣٣هجرية قمرية

آذر١٣٩٠هجرية شمسية / ديسمبر (كانون الأول) ٢٠١١

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الطباعة: حسين المندلاوي / على حروف (**قلم برتر**) خاص بالنشر المحترف

النسخة رقم (٢) من www.MaryamSoft.com

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.IranArab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٥٥

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ٤

الشهيد آية الله المطهري..... ١٨

دور زينب بنت علي في مسيرة الحضارة الإسلامية ٣٢

الأدب القرآني في خطب السيدة زينب(ع) ٥٠

استدعاء شخصية الحسين ٦١

تحقيق عن دور القصيدة في تجسيد الملحمة الحسينية ٧٦

ماذا لو نضب صلب الأديب وأجدب رحم الأدب؟! ٧٩

في رحاب أدعية الإمام الحسين(ع)..... ٩٢

في رحاب أدب الإمام الحسين ٩٦

المسرح الحسيني ٩٩

الدعوة الإسلامية إلى توطيد دعائم الأمن والسلم في العالم .. ١٠٢

المذهبية والوحدة الفكرية الإسلامية ١١٤

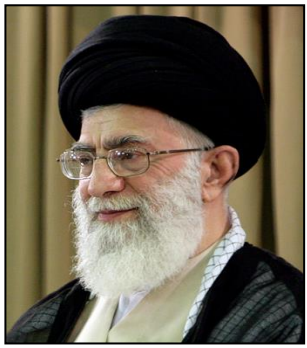

وقفات عند فكر
الإمام الخامنئي

كلمة السيد القائد أمام مؤتمر نصرة الانتفاضة الفلسطينية

١٤٣٢/١١/١٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله..

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال الله الحكيم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أرحب بالضيوف الأعزاء وجميع الحضور المحترمين. تتميز القضية الفلسطينية بخصوصية فريدة من بين كل الموضوعات التى يجدر بالنخبة الدينية والسياسية في كل العالم الإسلامى أن تتطرق لها. فلسطين هى القضية الأولى بين كل الموضوعات المشتركة

للبلدان الإسلامية. وثمة خصوصيات منقطعة النظير في هذه القضية:

أولاً: أن يغتصب بلد مسلم من شعبه، ويعطى لأجانب جُمّعوا من بلدان شتى، وكوّنوا مجتمعًا موزائيكيًا مزيفًا.

ثانيًا: أن هذا الحدث غير المسبوق في التاريخ جرى بواسطة المذابح والجرائم والظلم والإهانات المستمرة.

ثالثًا: أن قبلة المسلمين الأولى والكثير من المراكز الدينية المحترمة في هذا البلد مهدَّدة بالهدم والامتهان والزوال.

رابعًا: أن هذه الحكومة والمجتمع المزيّفين مارسا في أكثر مناطق العالم الإسلامي حساسية، منذ بداية ظهورهما و إلى الآن، دور القاعدة العسكرية والأمنية والسياسية للحكومات الاستكبارية، ودور المحور للغرب الاستعماري الذي هو ـ ولأسباب متعددة ـ عدو اتحاد البلدان الإسلامية ورفعتها وتقدمها، وقد استخدمه كالخنجر في خاصرةَ الأمة الإسلامية.

خامسًا: أن الصهيونية التي تعدّ خطرًا أخلاقيًا وسياسيًا واقتصاديًا كبيرًا على المجتمع البشرى استخدمت محطّ الأقدام هذا وسيلة ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذها وهيمنتها في العالم.

و يمكن إضافة نقاط أخرى للنقاط السابقة منها التكاليف المالية والبشرية الجسيمة التى تحمّلتها البلدان الإسلامية لحد الآن، والانشغال الذهني للحكومات والشعوب المسلمة، ومعاناة ومحن ملايين المشردين الفلسطينيين الذين لا يزال البعض منهم يعيشون

لحد الآن وبعد ستة عقود في المخيمات، والانقطاع التاريخي لقطب حضارى مهم في العالم الإسلامي، و.... الخ.

و قد أضيفت اليوم نقطة أساسية أخرى إلى تلك النقاط، ألا وهي نهضة الصحوة الإسلامية التى عمّت كل المنطقة، وفتحت فصلاً جديدًا حاسمًا في تاريخ الأمة الإسلامية. هذه الحركة العظيمة التى يمكنها بلا شك أن تؤدي إلى إيجاد منظومة إسلامية مقتدرة ومتقدمة ومنسجمة في هذه المنطقة الحساسة من العالم، وتضع بحول الله وقوته وبالعزيمة الراسخة لرواد هذه النهضة نهاية لعصر التخلف والضعف والمهانة الذي عاشته الشعوب المسلمة، استمدت جانبًا مهمًا من طاقتها وحماسها من قضية فلسطين.

الظلم والعسف المتصاعد الذي يمارسه الكيان الصهيوني وواكبة بعض الحكام المستبدين الفاسدين المرتزقين لأمريكا لهذا العسف من جهة، وانبعاث المقاومة الفلسطينية واللبنانية المستميتة والانتصارات المعجزة للشباب المؤمن في حربي الـ٣٣ يومًا في لبنان والـ٢٢ يومًا في غزة من جهة أخرى، هي من جملة العوامل المهمة التى أطلقت الطوفان في المحيط الهادئ في ظاهره للشعوب في مصر وتونس وليبيا وباقي بلدان المنطقة.

إنها لحقيقة أن الكيان الصهيوني المدجج بالسلاح والمدعي أنه عصيّ على الهزيمة تلقى في حرب غير متكافئة في لبنان هزيمة قاسية مذلة من القضبات المشدودة للمجاهدين المؤمنين الأبطال، وبعد ذلك اختبر سيفه الكليل مرة أخرى أمام المقاومة الفولاذية

المظلومة لغزة وذاق طعم الإخفاق.

هذه أمور يجب أخذها بعين الجد في تحليل الأوضاع الحالية للمنطقة، وقياس صحة أي قرار يتخذ على ضوئها.

إذن، إنه لرأى وحكم دقيق بأن قضية فلسطين اكتسبت اليوم أهمية وفورية مضاعفة، ومن حق الشعب الفلسطيني أن يتوقع المزيد من البلدان المسلمة في الوضع الراهن للمنطقة.

لنلق نظرة على الماضي والحاضر ونرسم خارطة طريق للمستقبل. وأنا أطرح هاهنا بعض رؤوس النقاط.

مضت على فاجعة اغتصاب فلسطين أكثر من ستة عقود. وجميع المسببين الرئيسيين لهذه الفاجعة الدامية معروفون، وعلى رأسهم الحكومة البريطانية المستعمرة، حيث استخدمت سياستها وقواها العسكرية والأمنية والاقتصادية والثقافية، هي وسائر الحكومات الغربية والشرقية المستكبرة من بعد ذلك، لخدمة هذا الظلم الكبير. وقد طرد الشعب الفلسطيني المشرد تحت وطأة قبضات المحتلين التى لا تعرف الرحمة، وقتل وأخرج من موطنه وديارة. و إلى اليوم لم يجر تصوير حتى واحد بالمائة من الفاجعة الإنسانية والمدنية التى وقعت على يد أدعياء التحضر والأخلاق في ذلك الحين، ولم تحظ بنصيب من الفنون الإعلامية والمرئية، فهذا ما لم يشأه كبار أرباب الفنون التصويرية والسينمائية والتلفزيونية والمافيات الغربية لإنتاج الأفلام، ولم يسمحوا به. شعب كامل قتل وتشرد وسط صمت مطبق.

ظهرت حالات المقاومة في بداية الأمر، وقد قمعت بقسوة وشدة. وبذل رجال على الحدود الفلسطينية، وخصوصًا من مصر، جهودًا بحفزات إسلامية، لكنها لم تحظ بالدعم اللازم ولم تستطع التأثير في الساحة.

و بعد ذلك جاء الدور للحروب الرسمية والكلاسيكية بين عدة بلدان عربية والجيش الصهيوني. جندت مصر وسورية والأردن قواتها العسكرية فى الساحة، لكن المساعدات العسكرية والإمدادية والمالية السخية والزاخرة والمتزايدة التى قدمتها أمريكا وبريطانيا وفرنسا للكيان الغاصب فرضت الإخفاق على الجيوش العربية. إنهم لم يعجزوا عن مساعدة الشعب الفلسطيني وحسب، بل وخسروا أجزاء مهمة من أراضيهم في هذه الحروب .

و مع اتضاح عجز الحكومات العربية الجارة لفلسطين تكوّنت تدريجيًا خلايا المقاومة المنظمة في معظم الجماعات الفلطسينية المسلحة، وبعد فترة من اجتماعها تأسست منظمة التحرير الفلسطينية. وكانت هذه بصيص أمل تألق تألقًا حسنًا لكنه لم يستمر طويلاً حتى خبا. ويمكن ردّ هذا الإخفاق إلى العديد من الأسباب، بيد أن السبب الرئيسي هو ابتعادهم عن الجماهير وعن عقيدتهم و إيمانهم الإسلامي. الإيديولوجيا اليسارية أو مجرد المشاعر القومية لم تكن الشيء الذي تحتاجه قضية فلسطين المعقدة الصعبة. ما كان بوسعه إنزال شعب بكامله إلى ساحة المقاومة وخلق قوة عصية على الهزيمة من أبناء الشعب هو الإسلام والجهاد والشهادة. أولئك لم يدركوا هذه الفكرة بصورة صحيحة. في

الأشهر الأولى لانتصار الثورة الإسلامية الكبرى حيث كان زعماء منظمة التحرير الفلسطينية قد اكتسبوا معنويات جديدة وراحوا يترددون على طهران، سألت أحد شخصياتهم المهمة: لماذا لا ترفعون راية الإسلام في كفاحكم الحق. وكان جوابه إن بيننا بعض المسيحيين. وقد جرى اغتيال هذا الشخص بعد ذلك في أحد البلدان العربية على يد الصهاينة، ونتمنى إن يكون الغفران الإلهى قد شمله إن شاء الله، لكن استدلاله هذا كان ناقصًا وغير ناهض. أعتقد أن المناضل المسيحي المؤمن يكتسب إلى جانب الجماعة المجاهدة المضحية التى تقاتل بإخلاص من منطلق الإيمان بالله والقيامة والأمل بالمعونة الإلهية، وتتمتع بالدعم المادي والمعنوي لشعبها، يكتسب محفزات أكبر وأكثر للنضال مما لو كان إلى جانب جماعة عديمة الإيمان ومعتمدة على مشاعر متزعزعة وبعيدة عن الإسناد الشعبي الوفي.

عدم توفر الإيمان الديني الراسخ والانقطاع عن الشعب جعلهم بمرور الوقت عاجزين وعديمي التأثير. طبعًا كان بينهم رجال شرفاء ومتحفزون وغيورون، بيد أن الجماعة والتنظيم سار في طريق آخر. انحرافهم وجّه ولا يزال الضربات للقضية الفلسطينية. هم أيضًا تنكروا كبعض الحكومات العربية الخائنة لأهداف المقاومة التى كانت ولا تزال السبيل الوحيد لإنقاذ فلسطين، وقد وجّهوا الضربات لا لفلسطين وحسب بل لأنفسهم أيضًا. وعلى حد تعبير الشاعر المسيحي العربي:

لئن أضعتم فلسطينًا فعيشكم طول الحياة مضاضات وآلام

وهكذا مضت اثنتان وثلاثون سنة من عمر النكبة.. لكن يد القدرة الإلهية قلبت الصفحة فجأة. وقلب انتصار الثورة الإسلامية في إيران في سنة ١٩٧٩ (١٣٥٧ هجري شمسي) الأوضاع في هذه المنطقة رأسًا على عقب، وفتح صفحة جديدة. ومن بين التأثيرات العالمية المذهلة لهذه الثورة كانت الضربة التى وجّهتها للحكومة الصهيونية هي الأسرع والأوضح من بين الضربات الشديدة والعميقة التي وجّهتها للسياسات الاستكبارية. وكانت تصريحات ساسة الكيان الصهيوني في تلك الأيام جديرة بالقراءة وتنمّ عن وضعهم الأسود الغارق في الاضطراب. في الأسابيع الأولى للانتصار أغلقت السفارة الإسرائيلية في طهران، وأخرج العاملون فيها، وجرى تسليم مكانها رسميًا لممثلي منظمة التحرير الفلسطينية، وهم موجودن هناك لحد الآن. أعلن إمامنا الجليل أن أحد أهداف هذه الثورة تحرير الأرض الفلسطينية واستئصال غدة إسرائيل السرطانية. الأمواج القوية لهذه الثورة التى عمّت العالم كله في ذلك الحين حملت معها إين ما ذهبت هذه الرسالة: «يجب تحرير فلسطين». المشاكل المتتابعة والكبيرة التى فرضها أعداء الثورة على نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية و إحداها حرب الأعوام الثمانية التى شنها نظام صدام حسين بتحريض من أمريكا وبريطانيا ودعم الأنظمة العربية الرجعية، لم تستطع هى الأخرى سلب الجمهورية الإسلامية محفزات الدفاع عن فلسطين.

و هكذا تم ضخّ دماء جديدة في عروق فلسطين، وانبثقت الجماعات الفلسطينية المجاهدة الإسلامية، وفتحت المقاومة في

لبنان جبهة قوية جديدة أمام العدو وحماته. واعتمدت فلسطين بدل الاستناد إلى الحكومات العربية ومن دون مدّ اليد للأوساط العالمية من قبيل منظمة الأمم المتحدة ـ وهى شريكة إجرام الحكومات الاستكبارية ـ اعتمدت على نفسها وعلى شبابها وعلى إيمانها الإسلامى العميق وعلى رجالها ونسائها المضحين.

هذا هو مفتاح كل الفتوحات والنجاحات.

لقد تقدم هذا السياق وتصاعد خلال العقود الثلاثة الأخيرة يومًا بعد يوم. وكانت الهزيمة الذليلة للكيان الصهيوني في لبنان عام ٢٠٠٦ (١٣٨٥ هجري شمسي)، والأخفاق الفاضح الذي مني به ذلك الجيش المتشدق في غزة سنة ٢٠٠٨ (١٣٨٧ هجري شمسي)، والفرار من جنوب لبنان والانسحاب من غزة، وتأسيس حكومة المقاومة في غزة، وبكلمة واحدة تحول الشعب الفلسطيني من مجموعة من الناس اليائسين العاجزين إلى شعب متفائل مقاوم له ثقته بنفسه، كانت هذه كلها من الخصائص البارزة للأعوام الثلاثين الأخيرة.

هذه الصورة الكلية الإجمالية سوف تكتمل حينما يُنظر بصورة صحيحة للتحركات الاستسلامية والخيانية التى تهدف إلى إطفاء المقاومة وانتزاع الاعتراف الرسمي بشرعية إسرائيل من الجماعات الفلسطينية والحكومات العربية.

هذه التحركات التى بدأت على يد الخليفة الخائن واللاخلف لجمال عبد الناصر في معاهدة كامب ديفيد المخزية أرادت دومًا ممارسة دور التثبيط حيال العزيمة الفولاذية للمقاومة. في معاهدة كامب ديفيد اعترفت حكومة عربية رسميًا ولأول مرة بصهيونية

الأراضي الإسلامية في فلسطين، وتركت توقيعها تحت سطور اعترفت بإسرائيل دارًا قوميًا لليهود .

و بعد ذلك وصولاً إلى معاهدة أوسلو في سنة ١٩٩٣ (١٣٧٢ هجري شمسي) والمشاريع التكميلية الأخرى التي أعقبتها والتي أدارتها أمريكا، وواكبتها البلدان الأوربية الاستعمارية، وفُرِضت على عاتق الجماعات الاستسلامية عديمة الهمّة من الفلسطينيين انصبت كل مساعي العدو على صرف الشعب والجماعات الفلسطينية عن خيار المقاومة بوعود مخادعة جوفاء و إشغالهم بألاعيب صبيانية في الساحات السياسية. وسرعان ما تجلى عدم اعتبار كل هذه المعاهدات، وأثبت الصهاينة وحماتهم مرارًا أنهم ينظرون لما كتب على أنه مجرد قصاصات ورق لا قيمة لها. كان الهدف من هذه المشاريع بث الشكوك والترديد في قلوب الفلسطينيين، وتطميع الأفراد عديمي الإيمان وطلاب الدنيا، وشلّ حركة المقاومة الإسلامية ليس إلا .

و قد كان المضاد لهذا السمّ في كل هذه الألاعيب الخيانية لحد الآن هو روح المقاومة لدى الجماعات الإسلامية والشعب الفلسطيني. لقد صمد هؤلاء أمام العدو بإذن الله، وكما وعد الله: ﴿و لينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز﴾ فقد حظوا بالمعونة والنصرة الإلهية. لقد كان صمود غزة على الرغم من المحاصرة المطلقة نصرًا إلهيًا. وسقوط النظام الخائن الفاسد لحسني مبارك نصرًا إلهيًا، وظهور موجة الصحوة الإسلامية القوية في المنطقة نصرًا إلهيًا، وسقوط أستار النفاق والزيف عن وجوه أمريكا وبريطانيا

وفرنسا، والكراهية المتصاعدة لشعوب المنطقة لهم كانت نصرة إلهية. والمشكلات المتتابعة والعصية على الحصر للكيان الصهيوني ابتداء من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية إلى عزلته العالمية والكراهية العامة له حتى في الجامعات الأوربية، كلها من مظاهر النصرة الإلهية.

الكيان الصهيوني اليوم مكروه وضعيف ومعزول أكثر من أي وقت آخر، وحاميته الرئيسية أمريكا مبتلاة متحيرة أكثر من أي وقت آخر.

الصفحة الكلية والإجمالية لفلسطين طوال نيّف وستين عامًا الماضية أمام أنظارنا حاليًا. ينبغي تنظيم المستقبل بالنظر لهذا الماضي واستلهام الدروس منه.

ينبغي قبل كل شيء إيضاح نقطتين:

الأولى: إن دعوانا هي تحرير فلسطين وليس تحرير جزء من فلسطين. أي مشروع يريد تقسيم فلسطين مرفوض بالمرة. مشروع الدولتين الذي خلعوا عليه لبوس الشرعية «الاعتراف بحكومة فلسطين كعضو في منظمة الأمم المتحدة» ليس سوى الاستسلام لإرادة الصهاينة، أي «الاعتراف للدولة الصهيونية بالأرض الفلسطينية». وهذا معناه سحق حقوق الشعب الفلسطيني وتجاهل الحق التاريخي للمشردين الفلسطينين، بل وتهديد حقوق الفلسطينيين الساكنين على أراضى ١٩٤٨ . وهو يعنى بقاء الغدة السرطانية والتهديد الدائم لجسد الأمة الإسلامية وخصوصًا شعوب

المنطقة. وهو بمعنى تكرار آلام ومحن عشرات الأعوام وسحق دماء الشهداء.

أي مشروع عملياتى يجب أن يكون على أساس مبدأ: «كل فلسطين لكل الشعب الفلسطينى». فلسطين هى فلسطين «من النهر إلى البحر»، وليس أقل من ذلك حتى بمقدار شبر. طبعًا يجب عدم نسيان أن الشعب الفلسطيني كما فعل في غزة، سوف يتولى إدارة شؤونه بنفسه عن طريق حكومته المنتخبة في أي جزء من تراب فلسطين يستطيع أن يحرره، لكنه لن ينسى الهدف النهائي على الإطلاق.

النقطة الثانية: هي أنه من أجل الوصول إلى هذا الهدف السامي لا بد من العمل وليس الكلام، ولا بد من الجدّ وليس الممارسات الاستعراضية، ولا بد من الصبر والتدبير لا السلوكيات المتلونة غير الصبورة. ينبغي النظر للآفاق البعيدة والتقدم للأمام خطوة خطوة بعزم وتوكل وأمل. يمكن لكل واحدة من الحكومات والشعوب المسلمة والجماعات المقاومة في فلسطين ولبنان وباقي البلدان أن تعرف نصيبها ودورها من هذا الجهاد العام، وأن تملأ بإذن الله جدول المقاومة.

مشروع الجمهورية الإسلامية لحل قضية فلسطين ولمداواة هذا الجرح القديم مشروع واضح ومنطقي ومطابق للعرف السياسي المقبول لدى الرأى العام العالمي، وقد سبق أن عرض بالتفصيل. إننا لا نقترح الحرب الكلاسيكية لجيوش البلدان الإسلامية، ولا رمي

اليهود المهاجرين في البحر، ولا طبقًا تحكيم منظمة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية. إننا نقترح إجراء استفتاء للشعب الفلسطيني. من حق الشعب الفلسطيني كأي شعب آخر أن يقرر مصيره ويختار النظام الذي يحكم بلاده. يشارك كل الفلسطينيين الأصليين من مسلمين ومسيحيين ويهود ـ وليس المهاجرون الأجانب ـ أين ما كانوا، في داخل فلسطين أو في المخيمات أو في أى مكان آخر، في استفتاء عام ومنضبط ويحددوا النظام المستقبلي لفلسطين. وبعد أن يستقر ذلك النظام والحكومة المنبثقة عنه سوف يقرر أمر المهاجرين غير الفلسطينيين الذين انتقلوا إلى هذا البلد خلال الأعوام الماضية. هذا مشروع عادل ومنطقي يستوعبه الرأى العام العالمي بصورة صحيحة، ويمكن أن يتمتع بدعم الشعوب والحكومات المستقلة. بالطبع، لا نتوقع أن يرضخ الصهاينة الغاصبون له بسهولة، وهنا يتكون دور الحكومات والشعوب ومنظمات المقاومة ويكتسب معناه.

الركن الأهم لدعم الشعب الفلسطينى هو قطع الدعم للعدو الغاصب، وهذا هو الواجب الكبير الذي يقع على عاتق الحكومات الإسلامية. الآن وبعد نزول الشعوب إلى الساحة وشعاراتهم المقتدرة ضد الكيان الصهيوني بأي منطق تواصل الحكومات المسلمة علاقاتها مع الكيان الغاصب؟ وثيقة صدق الحكومات المسلمة في مناصرتها للشعب الفلسطيني هو قطع علاقاتها السياسية والاقتصادية الجلية والخفية مع ذلك الكيان. الحكومات التى

تستضيف سفارات الصهاينة أو مكاتبهم الاقتصادية لا تستطيع أن تدّعي الدفاع عن فلسطين، وأي شعار معاد للصهيونية لن يأخذ منهم على مأخذ الجد والحقيقة.

منظمات المقاومة الإسلامية التى تحملت في الأعوام الماضية أعباء الجهاد الثقيلة لا تزال اليوم أيضًا أمام هذا الواجب الكبير . مقاومتهم المنظمة هي الذراع الفاعل الذي بمقدوره أخذ الشعب الفلسطيني نحو هذا الهدف النهائي. المقاومة الشجاعة للجماهير التى احتلت ديارهم وبلادهم معترف بها رسميًا وممدوحة ومشاد بها في كل المواثيق الدولية. تهمة الإرهاب التى تطلقها الشبكات السياسية والإعلامية التابعة للصهيونية كلام أجوف لا قيمة له. الإرهابي العلني هو الكيان الصهيوني وحماته الغربيون، والمقاومة الفلسطينية حركة إنسانية مقدسة مناهضة للإرهابيين .

و في هذا الخضم، من الجدير بالبلدان الغربية أيضًا أن تكون لها نظرتها الواقعية. الغرب اليوم على مفترق طرق. إما أن يتخلى عن منطق القوة الذي استخدمه زمنًا طويلاً ويعترف بحقوق الشعب الفلسطيني، ولا يواصل أكثر من هذا اتباع المخططات الصهيونية التعسفية اللاإنسانية، و إما أن ينتظر ضربات أقسى في المستقبل غير البعيد. وهذه الضربات الشالة ليست مجرد السقوط المتتابع للحكومات المطيعة لهم في المنطقة الإسلامية، إنما يوم تدرك الشعوب في أوربا وأمريكا أن أغلب مشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية نابعة من الهيمنة الأخطبوطية للصهيونية

الدولية على حكوماتهم، وأن ساستهم يطيعون ويسلمون لتعسف أصحاب الشركات الصهيونية المصاصة للدماء في أمريكا وأوربا من أجل الحفاظ على مصالحهم الشخصية والحزبية، فسوف يخلقون لهم جحيمًا لا يمكن تصور أي سبيل للخلاص منه .

يقول رئيس جمهورية أمريكا إن أمن إسرائيل هو خطنا الأحمر. من الذي رسم هذا الخط الأحمر؟ مصالح الشعب الأمريكى أم حاجة أوباما الشخصية للمال ودعم الشركات الصهيونية للحصول على كرسي الرئاسة في الدورة الرئاسية الثانية؟ إلى متى ستستطيعون خداع شعبكم؟ ماذا سيفعل الشعب الأمريكى يوم يدرك عن حق أنكم رضيتم بالذلة والتبعية والتمرّغ في التراب أمام أرباب المال الصهاينة، ونحرتم مصالح شعب كبير أمام أقدامهم من أجل البقاء في السلطة أيامًا إضافية؟

أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، إعلموا أن هذا الخط الأحمر لأوباما وأمثاله سوف يتحطم على يد الشعوب المسلمة الثائرة. ما يهدد الكيان الصهيوني ليس صواريخ إيران أو جماعات المقاومة حتى تنصبوا أمامه درعًا صاروخيًا هنا وهناك. التهديد الحقيقي والذي لا علاج له هو العزيمة الراسخة للرجال والنساء والشباب في البلدان الإسلامية الذين لم يعودوا يريدون أن تتحكم فيهم أمريكا وأوربا وعملاؤهم، ويفرضون عليهم الهوان.

و بالطبع، فإن تلك الصواريخ سوف تؤدي واجباتها متى ما ظهر تهديد من قبَل العدو.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ .

و السلام عليكم ورحمة الله.

الشهيد آية الله المطهري

محمد علي التسخيري *

كل ما يكتب عن الأستاذ الشهيد آية الله مرتضى المطهري قليل بلا شك، لأنّ الكلمات مهما كانت معبرة وذات أصالة فإنها وإنْ استطاعت أن توضح بعض الجوانب من حياة الاستاذ وشخصيته الفذة، فإنها غير قادرة على إعطاء صورة كاملة وشاملة عن هذا الأستاذ والفيلسوف المؤمن الصادق الملتزم.

فالشهيد المطهري، أستاذ كبير، ومؤمن صادق، ورسالي اصيل، كرّس حياته لخدمة الأهداف الإسلامية.

كان معلّمًا فكريًا للثورة الإسلامية، وأسطورة في تاريخ العلم والأدب والفلسفة والعرفان الإسلامي، وعالمًا من سلالة العلماء الربانيين، سقى بدمه شجرة الإسلام.

نعم، كان من نوادر عصرنا، ولاشك في أنّ التاريخ سيضع اسمه إلى جانب المشاهير المعاصرين. فقد ظهر في مقطع خطير وحساس من التاريخ السياسي للإسلام في بلادنا، واستطاع بأفكاره السامية

---

* -الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

أن يصمد أمام الانحرافات والمساعي اليائسة التي كانت ترمي إلى تشويه الوجه الحقيقي للإسلام،ويحافظ على أصالة الإسلام متحملاً بذلك مشقات كبيرة من دون أنْ يتردد أو يشعر بالخوف لحظة، ولماذا يشعر بالخوف؟ وهو الذي كان يعلمنا بأنّ أفضل ما يحققه الإنسان في حياته هو الشهادة في سبيل الله.

حياته وشخصيته

ولد عام ١٩١٩ في قرية نريمان بمحافظة خراسان، ونشأ وترعرع على يد والده الذي كان رجلاً ورعًا، تقيًا، مؤمنًا وصادقًا همّه الإسلام لا غير. وبهذا الصدد يقول الشهيد نفسه:

«إن إيمان أبي وتقواه وعمله الصالح أنار لي الطريق».

هاجر عام ١٩٣١ إلى مدينة مشهد المقدسة طلبًا للعلم، ودرس هناك مقدمات العلوم الإسلامية. فمنذ أيام شبابه كان يميل إلى الفلسفة، ويكنّ المحبة للعرفاء، وأول من تأثر الشهيد بشخصيته كان «الميرزا مهدي شهيدي» مدرس الفلسفة الإلهية ـ آنذاك ـ في الحوزة العلمية بمدينة مشهد.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره، غادر مشهد إلى مدينة قم المقدسة، وتتلمذ على يد أساتذه معروفين مثل آية الله سيد محمود المحقق وآية الله سيد محمد حجت. وهناك تبحر في الفقه والأصول.

وفي تلك الأيام تعرف على آية الله المنتظري، وعاش معه في

حجرة من حجر الحوزة العلمية، حيث تكونت بينهما رابطة معنوية كبيرة.

عن تلك الأيام يقول أحد العلماء من زملائه:

«منذ الأيام الأولى لتعارفنا، علمت ان الشهيد المطهري يلتزم بصلاة الليل، وكان يدعوني لإقامة هذه الصلاة، غير أنني كنت أتذرع بأمور قائلاً، إنّ ماء الحوض مالح ووسخ يؤذي عيني، لكنني وفي إحدى الليالي رأيت في عالم الرؤيا أنني نائم وأن شخصًا يُدعى عثمان بن حنيف أيقظني من النوم وقال: إنّ الإمام أمير المؤمنين(ع) أرسلني اليك وهو يأمرك بأن تستيقظ وتقيم الصلاة، وهذه رسالة لك منه. وكانت الرسالة ورقة صغيرة جدًا كتب عليها؛ هذه براءة لك من النار. لم أكن أدري ماذا أفعل، وفي تلك اللحظة بالضبط أيقظني المرحوم من نومي الواقعي، وبينما كانت في يده إبريق ماء قال لي: إنني جئتك بهذا الماء من النهر، انهض واقم الصلاة ولا تتذرع».

ودرس الشهيد كذلك على يد مرجع الأمة الإسلامية الإمام الخميني دام ظله، الفلسفة والعرفان والأخلاق، وتأثر به إلى درجة كان يثني عليه في أكثر الأحيان، حيث كان يرى فيه القائد الصلب الذي يستطيع بإيمانه وتقواه و إرادته الحرة أن يوصل سفينة الشعب الإيراني المسلم إلى ساحل النجاة ويرى فيه أصالة الإسلام.

وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره، بدأ يدرس العلوم العقلية،

وطالع عددًا من الكتب والكراسات التي كانت تتناول الفلسفة المادية مما مكنه فيما بعد على إصدار كتاب «أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية» حيث فنّد فيه فلسفة المادية الديالكتيكية.

وحول الفلسفة المادية يقول الشهيد:

«لقد كنت أدرس الفلسفة الإلهية والفلسفة المادية برغبة كبيرة، وفي مدينة قم تبين لي وبشكل قاطع أن الفلسفة المادية ليست ـ في الواقع ـ فلسفة ومن كان متعمقًا في الفلسفة الإلهية، واعيًا لها يرى بطلان الأفكار المادية».

في عام ١٩٥٤ هاجر إلى طهران من مدينة قم، وتزوج ابنة عالم ديني كبير. وفي طهران بدأ يلقي محاضرات حول الفلسفة الإلهية. وبعد عام أي في عام ١٩٥٥ نشر أول مقال له في مجلة «الحكمة»، وبعد سنتين من ذلك التاريخ صدر له المجلد الأول من كتاب «أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية».

وفي نفس العام دعته جامعة طهران للتدريس في كلية المعارف الإسلامية، فاغتنم الفرصة وظل مدة اثنين وعشرين عامًا يدرس الفلسفة والحضارة والمعارف الإسلامية. وقام بكتبه ومقالاته التي تعد بالمئات، بإرشاد الشباب نحو الإسلام وانقذ الكثير منهم من الجو القاتل للدعايات والتلقينات المادية العمياء الذي كان يسود الجامعات الإيرانية آنذاك.

وكتاب «العدل الإلهي» نموذج بارز من الخدمة التي قدمها في

هذا المجال، حيث طرح فيه هذه المسألة وأعطى الرأي القوي المتين المبرهن.

ولغاية عام ١٩٧٧ كان الأستاذ يواصل تحقيقاته في مجال المسائل الاعتقادية والاقتصادية والاجتماعية في «مسجد الجواد»، «حسينية الارشاد» و«مركز التوحيد».

وقام بتحقيقات حول التضاد والحركة في الفلسفة الإسلامية، ونشرها بصورة مقالات، كما قام بتحقيقات أخرى حول عرفان الشاعر الإيراني حافظ وحكتمه، وله بحوث في مجال المعرفة، وأيضا عدد من الكتب في مجال الفلسفة التاريخية والاقتصاد الإسلامي والمقارنة بين الإسلام والماركسية.

شارك في انتفاضة عام ١٩٦٣ التي قادها الإمام الخميني، وأودع السجن، ثم أطلق سراحه، واعتقل مجددًا بعد عدة سنوات، ومرة أخرى أطلق سراحه، غير أنه منع من الصعود على المنابر.

وبعد إحداث ذلك العام التي انتهت بنفي الإمام إلى خارج البلاد، قام مع عدد من علماء الدين وبتشجيع من الإمام الخميني بتأسيس: «جمعية علماء الدين المناضلين» فكان من أعضائها النشطين.

لقد قضى الأستاذ الشهيد حياته كلها في مكافحة المفاسد وأساليب الضلالة والأفكار الملحدة والالتقاطية، ولم يتغافل أبدًا عن ذكر الله و إرشاد الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم.

كان فقيهًا كبيرًا، تدرج إلى أعلى المستويات في علوم الفقه، ذا رغبة كبيرة في العلم، ولم يتوقف أبدًا عن المطالعة. كما كان

فيلسوفًا مشهورًا في الشرق والغرب، ويكنّ احترامًا بالغًا للفلاسفة والعرفاء المسلمين.

كان ـ عليه الرحمة ـ يتواجد في أي مكان يشاهد نقصًا فيه، على سبيل المثال أنه عندما أحسّ بأن أدب الأطفال يكاد يكون معدومًا، وأن الأعداء يستغلون مثل هذه الفرص لتوجيه ضرباتهم المميتة والمصيرية عبر ترسيخ ثقافتهم المنحطة في عقول أطفالنا لإعداد جيل لايفهم من الحياة سوى الأكل والشرب والنوم، بدأ يكتب قصصًا للأطفال تتناول الأخلاق الإسلامية وحياة المسلمين في عصر صدر الإسلام، وكانت خطوة يقل نظيرها في هذا السبيل.

وعندما لاحظ أن مجلة «زن روز» (المرأة العصرية) لا ترمي سوى إلى تشويه ماهية حقوق المرأة في الإسلام، و إبعاد النساء والفتيات عن الإسلام، تحرك في الوقت المناسب وبدأ بنشر سلسلة من المقالات حول «نظام حقوق المرأة في الإسلام» في نفس المجلة دون أن يأبى بالمخاطر التي قد تواجهه في المستقبل أو محاربته من قبل جهاز الأمن السابق (السافاك)، أو المحاولات التي قد تبذل لتشويه سمعته واتهامه بالتخلف والرجعية. واستطاع بمقالاته القيمة أن ينشر الوعي بين صفوف النساء والفتيات الإيرانيات، ويرسم امامهن الطريق الصحيح لئلا يقعن في الشرك المخطط ويبتعدن عن القيم الإسلام السامية.

اما كتاب *الحجاب* فهو الآخر يُعدّ من خدماته الجيللة المنقطعة النظير التي قدمها للمجتمع الإيراني، حيث استطاع بهذا الكتاب أن

يعالج المرض المسري الذي نشره أعداء الإسلام بزعامة الصهاينة بين نسائنا وفتياتنا.

وبدون شك فإن الشهيد المطهري كان بطل النضالات الفكرية والإيديولوجية خلال السنوات الأخيرة.

وفي خلال الأزمة الفكرية والعقائدية التي أوجدها «السافاك» منذ عام ١٩٦٥ ولحد عام ١٩٧٦ فإنه وباعتباره ممثلاً للإمام الخميني استطاع أن يحافظ على مجرى الإسلام الصادق والأصيل الذي يسمى اليوم بـ«نهج الامام» في جو المشاحنات والصراع بين تيارين فكريين هما «الماركسية» و«مدّعي الإسلام» اللذين كانا يستقطبان الأفكار.

وفي الوقت الذي خدِعَتْ جميع الأوساط المثقفة والمناضلة بالظاهر الثوري لهذين التيارين، وكان انتقاد التيارين المذكورين يعتبر ذنبًا لا يغفر ومعارضة للثورة والثوريين، فإنه من دون أن يشعر بالمخاوف والأخطار المرتقبة وقف بوجههما واستخدم قلمه فأثبت بطلانهما وكشف الحقائق.

لقد ناضل الشهيد خلال حياته ضد ثلاث جبهات:

الأولى: جبهة الكفر والظلم التي كانت تبذل محاولات يائسة من أجل بقائها واستمرارها.

والثانية: جبهة الكفر والإلحاد السافر التي كانت صورة أخرى من الجبهة الأولى، حيث كانت تسعى للظهور بمظهر ثوري بغية التحكم بالشعب.

والثالثة: جبهة الشرك الحديث التي ظهرت برداء الإسلام! وتطمع بالسلطة. وهذه الجبهة هي التي أسقطته شهيدًا.

ولعب مع بقية علماء الدين دورًا فعالاً في قيادة جماهير طهران خلال مرحلة الثورة، وزار الإمام الخميني في باريس الذي كلّفه بتشكيل مجلس الثورة الإسلامي فكان عضوًا من أعضائها.

وبعد أقل من عام على انتصار الثورة الإسلامية وبينما كان عائدًا إلى منزله فتح عليه المجرمون اعداء الثورة الإسلامية، النار فسقط شهيدًا..

اغتالوه... فلقد نفذ صبرهم وهم يشاهدونه يدفع بعجلة الثورة الإسلامية إلى الأمام بقلمه ولسانه وكل مابوسعه.

وقال الامام الخميني مرجع الأمة الإسلامية في البيان الذي أصدره في اليوم التالي من استشهاد الأستاذ المطهري:

«لقد غاب عنّا المطهري الذي قلّما نجد له مثيلاً من ناحية طهارة الروح وصلابة الإيمان وقوة البيان... لكن الأعداء لن يستطيعوا أن ينهوا شخصيته الإسلامة والعملية والفلسفية، وأن القتلة لن يستطيعوا محق الشخصية الإسلامية لرجال الإسلام».

وفي الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد هذا الأستاذ والفيلسوف الكبير أصدر الامام الخميني بيانًا جاء فيه:

«إنه قدّم للإسلام والعلم خدمات جليلة، و إنه لمن المؤسف حقًا أن تقوم الأيدي المجرمة باقتلاع هذه الشجرة من المجامع العلمية والإسلامية وتحرم الجميع من ثمراتها القيمة. لقد كان ابنًا عزيزًا لي،

وخادمًا صادقًا للشعب والقطر».

قالوا عن الشهيد

عن الشهيد تقول عقيلته:

«كان الأستاذ يلتزم بأصول التعليم والتربية عند تعامله مع أبنائه وأفراد المجتمع، ولم يكن يجبر أحدًا على عمل شيء، بل كان يأتي دائمًا بالبراهين والأدلة لإقناع الطرف المقابل للقيام بهذا أو ذاك العمل....».

أما آية الله المنتظري فلقد قال عنه مرة:

«كان المرحوم المطهري مجتهدًا في العلوم الإسلامية من مثل: التفسير، والفقه، والأصول، وأصول الدين، ولعب دورًا بالغ الأهمية في تعريف الرسالة الإسلامية الأصيلة، كما لعب دورًا في النهضة الإسلامية التي بدأها الإمام الخميني...».

وقال آية الله المشكيني أمام جمعة قم حول شهيدنا العزيز:

«يتضح من مؤلفاته أنه كان قد فهم الإسلام بشكل صحيح وكان سدًا أمام الشيوعيين والكفرة».

وعنه قال الشهيد الدكتور مفتح أستاذ كلية المعارف الإسلامية:

«إنه وفي أوج الثورة الإسلامية كان يقول لي؛ لو أن أمامنا وقائدنا نجح فإنني لن أطمح لأي منصب.. إن مكتبتي هي أكبر لذة لي، إنني لا أريد شيئًا سوى أن أكتب وأحقق وأدافع عن الإسلام».

وقال الشهيد بهشتي عنه:

«إن اغتيال المرحوم المطهري جاء في الحقيقة للقضاء على الفكر الإسلامي الأصيل، ولقد استشهد في وقت كانت هناك حاجة لدوره».

ولقد قال حجة الإسلام والمسلمين هاشمي رفسنجاني رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام:

«إن شهادة المطهري هي بحد ذاتها دليل على صحة الطريق الذي كان يخطو فيه. فعندما تعرف على نفسه جاهد بشكل متواصل لتعريف الإسلام الحقيقي و إزالة غبار الشرك والجهل الذي كان يغطي الرسالة الإسلامية».

ويقول المرحوم العلامة الطباطبائي عن تلميذه:

«كان المطهري رجلاً تقيًا اكتسب التقوى من الفلسفة، وكان ذكيًا ومتحليًا بجميع الصفات الإنسانية الرفيعة ويميل إلى العلم أشد الميل».

من أقوال الشهيد المطهري

منطق الشهيد، هو منطق الاحتراق والإضاءة، منطق الانصهار في المجتمع لإحيائه، منطق إحياء القيم الإنسانية، ومنطق خلق البطولات.

إن دم الشهيد لن يذهب هباء مطلقًا، فهو لا يسكب على الأرض، فكل قطرة من دمه تتبدل إلى مئات وآلاف القطرات، بل إلى بحر من الدم لتصب في جسم المجتمع.

الإسلام لا يحصر العبادة بالأعمال البدنية كالصلاة والصيام أو العبادات المالية كدفع الخمس والزكاة، بل هناك نوع آخر من العبادة، وهو العبادة الفكرية. فالعبادة الفكرية تعادل سنوات من العبادة البدنية وتسمو عليها بكثير، إنّ اتجهت على طريق توعية الإنسان.

الإنسان في نظام الشرك ينجذب في كل لحظة إلى جهة أنه قشة في البحر تتقاذفها الأمواج في كل لحظة، أما في النظام التوحيدي فهو كالسفينة المجهزة بأجهزة الدلالة تجري في حركة منظمة متناسقة تحت قيادة من يحب الخير.

أما الإنسان غير المؤمن فهو يعيش في العالم كمعيشة إنسان يعتقد بظلم وفساد القوانين والأنظمة الحاكمة في بلده، ويرى نفسه مضطرًا إلى الخضوع لها. مثل هذا الفرد يحس دومًا أنه مليء بالعُقد والأحقاد، ولا يفكر على الأطلاق في إصلاح نفسه ، إذ لا يرى جدوى في ذلك، فهو يرى نفسه قطرة في بحر يموج بالظلم والجور.

هذا الإنسان لا يحسّ بلذة في العالم، لأن العالم في نظره سجن رهيب.

الإسلام نظرية انتصار الروح الإنسانية على الروح الحيوانية.. وانتصار العلم على الجهل، وانتصار العدل على الظلم، وانتصار المساواة على التمييز، وانتصار الفضيلة على الرذيلة، وانتصار التقوى على التحلل، وانتصار التوحيد على الشرك.

طبيعي ان الايديولوجية الوحيدة التي تستطيع أن تكون ذات ماهية إنسانية تقوم على أساس القيم الإنسانية، هي الأيديولوجية الإنسانية لا الفئوية، هي الايويولوجية الموحدة لا القائمة على أساس تجزئة الإنسان، هي الأيديولوجية الفطرية لا المصلحية.

نعتقد أن سبب تناقضات ماركس يعود إلى أن ماركس كان أقل ماركسية من كثير من الماركسيين. ويذكر أن ماركس كان يشرح امام مجموعة من الماركسيين نظرية تنافي بعض نظرياته السابقة، فلم يطق الحاضرون سماع هذا الشرح، فما كان من ماركس إلا أن قال لهم: أنا لست ماركسيًا بمستواكم . ويقال انه ردّد في آخر حياته: لست ماركسيًا.

آثار الشهيد القيمة

للشهيد الأستاذ مرتضى المطهري آثار وقيمة تعد بالعشرات، ترجم عدد منها إلى أكثر من لغة عالمية، وتبذل حاليًا محاولات لطبع مالم يطبع من مؤلفاته، حيث هناك الكثير من الكتب والمقالات التي لم تطبع بعد.

ومن جملة ماطبع له لحد اليوم:

١. *الإنسان والمصير.*

٢- *الوحي والنبوة.*

٣- *الحركات الإسلامية في القرن الأخير*

٥- *الإنسان والايمان.*

٦- العدل الالهي.

٧- مسألة الحجاب.

٨- نظام حقوق المرأة في الإسلام.

٩- الدوافع نحو المادية.

١٠- المجتمع والتاريخ.

١١- الامدادات الغيبية في حياة البشر.

١٢- المادية في إيران.

١٣- الادارة والقيادة في الإسلام.

١٤- الولاء والولاية.

١٥- السلوك الجنسي في الإسلام والغرب.

١٦- قيام وثورة الامام المهدي (عج).

١٧- تفسير الكون.

١٨- الإنسان والايمان.

١٩- اصول الفلسفة والمدرسة الواقعية .خمس مجلدات.

٢٠- التكامل الاجتماعي في الإسلام.

٢١- في رحاب نهج البلاغة.

٢٢- الحياة الخالدة.

٢٣- قصص اهل الحق .الجزء الاول والثاني.

٢٤- إحراق الكتب في إيران ومصر.

٢٥- لن تغرب شمس هذا الدين.

٢٦- إيران والإسلام، ج١، ج٢.

٢٧- عشرون مقالة.

٢٨- عشر مقالات.

٢٩- ختم النبوة.

٣٠- الشهيد

٣١- النظرة الكونية التوحيدية.

٣٢- حول الثورة الإسلامية.

٣٣- مسألة النفاق.

٣٤- اصالة الروح.

٣٥- مبدأ التضاد كما تصوره الفلسفة الإسلامية.

٣٦- البحث عن الحقيقة.

٣٧- الجهاد.

٣٨- هدف الحياة.

٣٩- ابحاث اقتصادية.

٤٠- ماركس والماركسية.

وهناك كتب ومقالات ومحاضرات لم تطبع لحد الآن منها؛ *الإمام والقيادة، الاقتصاد الإسلامي، الإنسان في تصور الماركسية والإسلام.*

دور زينب بنت علي
في مسيرة الحضارة الإسلامية

الناس من حيث اهتماماتهم نوعان: الأول يعيش همومه الغريزية المادية من طعام وشراب ومأكل وملبس لنفسه أو لمن يراهم امتدادًا لنفسه كأولاده وأهله: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ (محمد:١٢). ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ (الفتح:١١).

وآخرون يعيشون همومًا وأهدافًا تتعدى هذه الذاتية، ويعيشون بكل وجودهم أو بجزء من وجودهم – على الأقل – من أجل أهداف ذات آثار تتجاوز الذات.

بتعبير آخر بعض الناس يعيشون لمتطلبات الطين الذي خُلق منه الإنسان، وبعض آخر تتجلّى فيهم بدرجة وأخرى آثار النفخة التي نفخها الله سبحانه وتعالى من روحه في هذا الإنسان.

كرامة الإنسان تتجلّى في هذا النوع الثاني، هذه الكرامة التي يشير إليها القرآن الكريم حيث يقول:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:٧٠).

بهذا التكريم يفضل الإنسان على سائر المخلوقات، وبهذا

التكريم يسخّر قوى الطبيعة ببرّها وبحرها. وبهذا التكريم يتحرك ليقيم خلافة الله في الأرض، وليشيد صرح الحضارة الإنسانية الإلهية.

وأكبر ما تُمنى به البشرية من انتكاس هو ضمور هذا التكريم في وجودها بسبب عوامل مختلفة، فتنتكس في حركتها الحضارية أو تعيش أهواءها الذاتية، وهذه الأهواء عادة متضاربة بين الأفراد فيتمزق المجتمع ويُصبح عرضة لسيطرة الطواغيت عليه.

الأديان السماوية استهدفت جميعًا إحياء عنصر الكرامة في نفس الإنسان، كلّ ما دعوا إليه يصب في هذا الهدف سواء على صعيد العقيدة أو السلوك أو العلاقات.

الإنسان لابدّ أن يعبد، المؤمن يعبد والكافر يعبد:

﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (الكافرون:٢٣)

إما أن يعبد الله سبحانه وتعالى أو يعبد ما دونه، وجاءت الرسالات السماوية لتقول للإنسان: أنت أكرم من أن تعبد غير الله، ولتحقيق كرامته وجّهته لعبادة خالق السماوات والأرض: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللّه﴾ (النحل:٣٦)

وحين يعبد الله يتجاوز عبادة نفسه وعبادة هواه. وينطلق لتحقيق رضا الله في سلوكه وعلاقاته، ليتخلّق بأخلاق الله من عزّ وعلم وكرم وقدرة وسعة وحلم ورحمة وانتقام وسائر صفات الله سبحانه.

وحين يعبد هواه يفقد كلَّ قوة أودعها الله في نفس هذا الإنسان بنفخته، فيصاب بالضعف أمام قوة الطاغوت و إغراءات المال والشهوة فيمنى بالذل، وهو أقسى ما يمنى به فرد أو مجتمع.

والأديان السماوية دعت إلى تحرّر الإنسان من كلّ ما يعيق حركته نحو كرامته وعزّته: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (لأعراف:١٥٧)

ولا يجوز للجماعة البشرية أن تعيش في حالة استضعاف يعيقها عن ممارسة دورها الرسالي في الحياة، وإن وُجدت مثل هذه الجماعة فلا بد من الجهاد لتحريرها:

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (النساء:٧٥)

والجماعة المستضعفة هي أيضًا مسؤولة عن رفع ما عليها من حالة معيقة عن حركتها التكاملية، فإن لم تستطع رفع الاستضعاف عنها في مقامها فعليها أن ترحل لتجد المكان الذي تحقق فيه شخصيتها وعزتها وكرامتها، وإن لم يفعلوا فقد ظلموا أنفسهم واستحقوا عقاب رب العالمين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:٩٧)

الرسالة الإسلامية في عصرها الأول واجهت نوعين من المجتمعات:

الأول – مجتمعات جامدة ساكنة لا تطور فيها ولا حراك تعيش في إطار اهتماماتها الغريزية ولا تتعداها.

الثاني – أمم ذات حضارة قائمة على أساس عبودية الطواغيت

وكل شيء مكرّس فيها لخدمة الأباطرة الحاكمين، وكل اهتمام يصبّ في تقوية السلطة الحاكمة وجيوشها وعروشها ولهوها وقصورها. أما الإنسان بما هو «إنسان» فلا قيمة له في تلك الحضارات.

وجاءت الرسالة الإسلامية لتقدم منهج تحرير الإنسان من كل ما يعيقه عن الحركة على طريق كرامته.. تحريره من الجهل والخرافة وعبودية الطاغوت وعبودية الهوى ومن الخضوع والاستسلام لكل ما يريد للإنسان أن يكون ضعيفًا ذليلاً مقهورًا.

بهذا المنهج خلق الإسلام في المجموعة المسلمة طاقة روحية والصبر على مواصلة المعاناة، وهذه الطاقة الروحية كانت وراء كل ما ظهر في التاريخ الإسلامي من فتوحات وعلوم وفنون وحضارة مشرقة.

الإسلام ركز في مفاهيمه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره الضمان اللازم لمقاومة المعوقات التي تظهر أمام المسيرة الحضارية، وهذا المبدأ يضع المسلمين أمام مسؤولية مواجهة هذه المعوقات وبذل الغالي والنفيس لإزالتها.

هذه المعوقات غالبًا ما تكون طبيعية ناتجة عن خصلة الطين الموجودة في البشر. وتكون هيّنة حين تبرز على الساحة الفردية، فتتوجه دعوة الإسلام إلى هذا الفرد أو ذاك للاهتداء ولتقويم الاعوجاج، ومن ثم لدفع هذا الإنسان على مسيرة الكرامة والكمال. غير أنها تكون خطرة حين تتحول إلى عائق يقف أمام

كل المسيرة الاجتماعية نحو الكرامة. فيصاب المجتمع بالذل، وتنتكس المسيرة برمتها. من هنا فإن الرساليين –وهم الذين استعلوا بإيمانهم عن السقوط في أوحال الذل –يتحملون من مسؤوليات التضحية بمقدار حجم الانحراف السائد.

المجتمع الإسلامي بعد عصر الخلافة الراشدة مني بسبب عوامل عديدة بهذه النكسة، وأوشكت حالة الذل أن تخيم على المجتمع الإسلامي بعد أن أطبق عليها التخويف والتجويع والإرهاب في أفظع صوره.

من هنا كان لابد من إجراء عملي كبير لإحداث هزة نفسية في المجتمع تشعره بكرامته المهدورة وعزته الضائعة، وكان الإمام الحسين عليه السلام يتحمل هذه المسؤولية باعتباره إمام ذلك المجتمع.

أقف قليلا عند مسألة أثيرت في إيران خلال السبعينات وأظن أن صداها امتد إلى الأوساط الشيعية العربية وهي الهدف من ثورة الحسين. دوّن أحدهم كتابًا تحت اسم «شهيد جاويد» = «الشهيد الخالد» ادّعى فيه أن الحسين(ع) جاء إلى العراق ليقيم دولة الإسلام، ولكنه فشل في هذه المهمة، وعارضه آخرون قائلين:

إن هذا الكلام يتناقض مع علم الإمام، فالإمام كان عالمًا بمصيره. دار في هذا الموضوع كلام كثير لا ضرورة للوقوف عنده، وأكتفي بالقول إن الذي لم يطرح في هذا القيل والقال هو أن الحسين بن علي عليه السلام جاء إلى العراق لينهض بعملية كبرى

تستهدف إعادة الكرامة والعزّة إلى المجتمع الإسلامي، وهو هدف أهداف مسيرة الأنبياء، وما دولة الإسلام الكريمة إلاّ لتعزّ الإسلام وأهل الإسلام وتكرم المسلمين في الدنيا والآخرة، ألا تقرأ في الدعاء: «اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة»؟!

حركة الحسين كانت من أجل هدف أكبر من الدولة الإسلامية وأكبر من أي هدف متصوّر آخر.. إنه عملية إحياء المسيرة الحضارية الإسلامية في أهدافها المنشودة بعد أن تعثرت، بل كادت أن تنتكس وتتراجع بسبب حالة الذل المفروضة على المجتمع.

كل مواقف الحسين وحركاته وسكناته وكل ما قاله وخاطب به أصحابه وأهل بيته وما خاطب به الجيش القادم على قتاله يؤكد هذه الحقيقة.. حقيقة أنه قادم لإعادة الكرامة إلى المجتمع الإسلامي.

ليس حديثنا عن الحسين، بل عن عقيلة بني هاشم التي كان لها الدور الأكبر بعد الحسين في عملية إحياء المجتمع المسلم، فماذا كان دورها الرسالي في تحقيق هذا الهدف الكبير.

لابدّ أن أذكر أولاً أنها كانت – في اعتقادي – مؤهّلة تمامًا لحمل هذا الدور. لا تتوفر لدينا وثائق كثيرة عن شخصيتها، ولكن ما ذكره لنا التاريخ من نتف عابرة هو كاف لمعرفة شخصية هذه المرأة وتأهّلها لهذا الدور. يكفي ما ذكره لنا التاريخ أن هذه المرأة

يخاطبها الحسين في أعظم وأصعب موقف في ليلة الاستعداد للقتل والسبي.. في ليلة العاشر من محرم ويقول لها: «يا أختاه لا تنسيني في نافلة الليل»[1].

إني أفهم من هذه العبارة شيئًا كثيرًا.. بعضه أستشعره دون أن أتمكن من بيانه وبعضه يمكن بيانه، إنها عبارة تبين ارتفاع الأخ والأخت إلى مستوى يفوق بكثير الحالات التي تصيب الناس العاديين حين يواجهون موقفًا رهيبًا، تبين مدى ارتباط الأخوين بالهدف الكبير ومدى سموّهما في القرب الإلهي.

وثمة وثيقة أخرى بقيت خالدة عن هذه المرأة هي قولها عند وقوفها على جسد أخيها المدمى المقطع بالسيوف المحزوز الرأس.. وهو مشهد يهدّ الجبال ويضعف الأبطال، قولتها المشهورة:

«اللهم تقبل منّا هذا القربان».

ومن الأفضل للإنسان أن يكفّ عن أي تعليق على هذا القول ويكتفي بما يحدثه في النفس من عاصفة تحيّر العقول وتدهش النفوس.

وثمة وثيقة ثالثة تبيّن تأهّل هذه المرأة لمثل هذا الدور الرسالي ما ذكره المؤرخون أنها أدّت ليلة الحادي عشر من محرم صلاة الشكر..

يا إلهي كفى على عظمتك شهيدًا أنك خلقت أمثال هؤلاء

١- أدب الطف، جواب شبر ٣٤٣/١.

العظماء الذين لا تقاس بهم عظمة سماواتك وأرضك!!!

وهل يمكن أن نقبل أمام هذه العظمة ما يصرّ بعضنا على روايته من ضعف وانهيار أصاب هذه المرأة الكبرى.. أنا على يقين من أن روح الضعف والهزيمة التي مُنينا بها هي التي تجعلنا نصوّر زينب بما لا يليق بهذه المرأة العظيمة.

الدرس الكبير العملي الذي قدمته زينب للأمة الإسلامية هو كيف يمكن تبديل حالة الذل إلى حالة العزّة والكرامة.

والبديع في الأمر أن أسرها ساعدها في النهوض بهذا الدور الرسالي التاريخي.

لو كانت زينب عزيزة بإخوتها وأهل بيتها وعشيرتها وأصحابها لما استطاعت أن تؤدّي هذه المهمة. ولكنها وقعت في ذلّ الأسر بعد أن فقدت إخوتها وأهل بيتها وحماتها، ولا شك أن الأسر ذلّ ما بعده ذلّ، خاصة حين يكون بيد أناس ذبحوا ابن بنت رسول الله وأحرقوا خيم عياله ورضّوا أجساد القتلى بالخيل ومارسوا ألوان الفظاظة والقسوة والدناءة.

ولكن دور زينب هو أنها حوّلت هذا الذل إلى عزّة وكرامة، وكأني بها قالت للمجتمع الذي خيّم عليه الذل: أنا امرأة وحيدة لا ناصر لي ولا معين حوّلت حالة الذلّ التي وقعت فيها إلى حالة عزّ فهل فيكم من بقايا كرامة؟!!

كيف مارست زينب هذا الدور الرسالي الكبير؟

١- عدم الشعور بالهزيمة:

وهذه صفة هامة لمن يتأهّل لتحويل الهزيمة إلى انتصار. لو بدى على زينب الانكسار أو الضعف والانهيار لما استطاعت أن تؤدي مهمتها، لكنها في مواقفها كانت من القوة بحيث جعلت المؤرخين يتحدثون عن هذه المواقف.

قال بشر بن خزيم الأسدي: «ونظرت إلى زينب بنت علي عليها السلام يؤمنذ فلم أر خفرة أنطق منها كأنها تفرغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا فارتدت الأنفاس وسكتت الأجراس».

هذا الموقف يدل على أن صلابة شخصية زينب قد أثّرت على هذا الرجل كما أثّرت على كل المخاطبين بحديثها في الكوفة. يقول الراوي: «لقد رأيت الناس يؤمئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم. ورأيت شيخًا واقفًا إلى جنبي يبكي حتى اخضلَّت لحيته وهو يقول: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونساؤكم خير النساء ونسلكم خير نسل لا يُخزى ولا يُبزى».

وهذه الصلابة وعدم الإحساس بالضعف أفقدت صواب والي يزيد عبيد الله بن زياد فما بالك بالآخرين الحاضرين في مجلسه حين أدخل عيال الحسين على ابن زياد فدخلت زينب متنكرة وعليها أرذل ثيابها، فمضت حتى جلست ناحية من القصر، وحفّت بها النساء. فقال ابن زياد: من هذه التي انحازت فجلست ناحية ومعها نساؤها؟ فلم تجبه زينب، فأعاد ثانية وثالثة يسأل. فقالت

بعض النساء هذه زينب بنت رسول الله(ص).

لاحظوا عظمة الموقف: دخلت على أعتى مستكبر وأبشع قاتل وأفظع طاغية، فما التفتت إليه، ولا وقفت أمامه، ولا أستأذنته في الجلوس، بل أهملته وانحازت وجلست مع النساء في جانب من القصر، ثم لم تجب على سؤال الطاغية رغم أنه كرره ثلاثًا.

هذا يعني أنها لم تستشعر بأي ضعف ولم يساورها أي شعور بالهزيمة.

٢- المحافظة على روح العزّة:

حرصت زينب عليها السلام على صيانة روح العزّة لدى سبايا أهل البيت كي لا يستشعروا الذلة في أسرهم، ولكي يكونوا هم أيضًا صورة لمن يأبى أن يُذلّ.

في الرواية أن السبايا أدخلوا في دار إلى جانب المسجد الأعظم، ومن الطبيعي أن تزورهم النساء، فتجمّعن على باب هذا البيت للدخول على زينب، فخشيت زينب أن يساور نساء آل بيت النبوة نوع من الإحساس بالذلة أمام بقية النساء، فرفضت زينب دخول النساء عليها وقالت: «لا تدخل علينا إلا مملوكة أو أم ولد فإنهنّ سُبين كما سُبينا».

لاحظ أنها سمحت لدخول نوع خاص من النساء يشاركن أهل بيت النبوة في الأحاسيس والمشاعر، دون بقية النساء اللاتي لا يحملن

مثل هذا الإحساس والتاريخ المشترك.

وفي الرواية أن قافلة السبايا حين دخلت الكوفة قدّم لهم بعض أهل هذه المدينة تمرًا وخبزًا. فصاحت زينب: «إن الصدقة حرام علينا أهل البيت». فرمى كلّ واحد منهم ما في يده أو فمه وراح يقول لصاحبه: إنّ عمّتي تقول إن الصدقة حرام علينا أهل البيت.

بهذا الشكل جعلت هذه الأسرة الكريمة تستشعر عزتها وكرامتها في انتسابها لآل بيت رسول الله(ص).

٣- الإيمان بالمستقبل:

من عناصر التربية القرآنية في تحقيق النصر الإيمان بالمستقبل، الإيمان بانتصار العدل على الظلم وانتصار الدم على السيف وانتصار المستضعفين على المستبكرين. هذا الإيمان كان راسخًا في نفس زينب وكان له الأثر الكبير في تحقيق هدفها الكبير.

في الرواية أنها رأت التأثر الكبير على علي بن الحسين وهو يستعرض ذكريات الواقعة الأليمة في كربلاء، ومشهد الأجساد المتناثرة على الرمضاء، فقالت له: «مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي و إخوتي، فوالله إن هذا لعهد من الله إلى جدك وأبيك، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض، وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطّعة والأجسام المضرّجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علمًا لقبر أبيك سيد الشهداء، لمّا يُدرس أثره ولا يُحى رسمه على مرور الليالي

والأيام، وليجتهدنّ أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وطمسه فلا يزداد أثره إلا علوّا [1]».

وبهذا الإيمان بمستقبل تسقط فيه دولة الظالمين تخاطب يزيد قائلة:

«فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض (تغسل) عنك عارها، وهل رأيك إلا فَنَد، وأيامك إلا عَدَد، وجمعك إلا بَدَد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

٤- الشجاعة:

وهي خصلة بارزة في مواقف السيدة زينب، وقد ورثتها عن أبيها، بل من مدرسة أبيها وجدها، وهي مدرسة القرآن التي تعلّم الإنسان أن يخشى الله ولا يخشى سواه، تربّت على أن الحوادث مهما كانت جسيمة لا يهتز لها قلب، ولا يرتجف لها جسد، وعلى أن تستقبل الموت وتطلبه، ومن طلب الموت كُتبت له الحياة وكُتب له الخلود.

فهي تقف أمام طاغية زمانها لتقول له:

١- المقرم/ ٣٠٨.

«ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك واستعظم تقريعك، واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرّى».

الطاغية المتفرعن أمامها لا يستحق حتى التقريع والتوبيخ، فهي أكبر من أن تخاطبه بأي شيء حتى بالتقريع والتوبيخ.. أية شجاعة هذه؟!!

برزت شجاعتها ورباطة جأشها في دفاعها عن آل بيت النبوة أمام كل تهديد، فتنقّلها بين الخيام المشتعلة، راكضة لتجمع الأطفال وتقيهم من النار والتشرد، موقف لا يصدر إلا عن امرأة لم تفقد السيطرة على نفسها حتى في ذلك الموقف الرهيب الذي يزلزل أعاظم الرجال.

وهكذا وقوفها مدافعة عن علي بن الحسين عليه السلام حين أمر ابن زياد أن تضرب عنقه. إذ تعلّقت به عمّته وقالت: يا ابن زياد حسبك من دمائنا، واعتنقته وقالت: «والله لا أفارقه فإن قتلته فاقتلني».

وموقفها من الرجل الذي طلب من يزيد أن يهب له فاطمة بنت الحسين باعتبارها جارية. إذ نهضت زينب وقالت: «كذبت والله ولؤمت ما ذاك لك ولا له (أي ولا ليزيد)».

فغضب يزيد وقال: كذبت إن ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت.

فأجابته العقيلة: «كلاّ والله ما جعل الله لك ذلك إلاّ أن تخرج

من ملّتنا وتدين بغيرها».

فاستشاط الطاغية غضبًا وقال:

«إياي تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك وأخوك».

فقالت له دون أن تؤثر فيها حدّة الخصم:

«بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدّك وأبوك لو كنت مسلمًا».

فقد يزيد صوابه وصرخ: كذبت يا عدوة الله.

فأجابته بما ينهي هذا التصعيد بعد أن سجلت موقفها الشجاع وقالت: «أنت أمير تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك».

وتقول الرواية: فكأنه استحيا وسكت.

وتنتقل أخبار هذه المواقف إلى العالم الإسلامي وتتناقلها الأفواه التي أُلجمت والألسن التي بُكمت باعتبارها ملاحم آل بيت رسول الله فتفعل فعلها في النفوس.

٥- مفهوم النصر والهزيمة:

من العوامل الهامة التي تستطيع أن تحوّل الهزيمة إلى نصر والذلّ إلى عزّة ما يحمله الإنسان من مفهوم عن معنى النصر والهزيمة.

والإسلام ربّى أبناءه كي لا يعرفوا للهزيمة معنى، فهم ينالون على أي حال إحدى الحسنيين، وانحسار الحق لا يعني فشله وضعفه بل يعني تمحيص المؤمنين الصادقين، وانتفاش الباطل لا يعني انتصاره لأنه هو استدراج أهل الباطل كي يزدادوا إثمًا. هذه المفاهيم

كانت زينب عليها السلام تبثها في المجتمع محاولة تصوير يزيد المنتصر بأنه هو المنهزم وبأنهم هم المنتصرون.. المنتصرون بما نالوا من فوز الشهادة.. والمنتصرون على المدى البعيد حين تهدم دماؤهم عروش الطواغيت.

تقول عليها السلام مخاطبة يزيد:

«أظننتَ يا يزيد حيث أخذتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الإماء أن بنا هوانًا على الله وبك عليه كرامة؟! وأن ذلك لعِظَم خَطَرك عنده؟! فشَمَختَ بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسرورًا، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متّسقة، وحيث صفا لك ملكنا وسلطاننا؟!!

فمهلاً مهلا، لا تطش جهلا. أنسيت قول الله تعالى:﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(آل عمران:١٧٨).

وتقول مخاطبة ابن زياد حين قال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

تقول له: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد(ص)، وطهّرنا من الرجس تطهيرًا. إنما يُفتضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله».

يعاود ابن زياد الطعن فيقول: كيف رأيتِ فعلَ الله بأهل بيتك؟

تجيبه بنفس تلك المفاهيم فتقول: «كتب الله عليهم القتلَ فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتتحاجّون وتتخاصمون

عنده».

وفي رواية أخرى وهي الراجحة في رأيي أنها قالت:

«ما رأيت إلا جميلا.. وسيجمع الله بينك وبينهم..».

نعم.. ما رأيت إلا جميلا.. في هذه العبارة تتلخّص كلّ شخصية زينب بنت علي عليهما السلام.. وكل نظرتها العرفانية إلى الأمور.

أي جمال هذا الذي ينجلي لسليلة بيت النبوة ولا تراه العيون المحجوبة عن رؤية الجمال الحقيقي في هذا الكون!! وأي جمال تستشعره هذه العارفة بالله ولاتحسّه القلوب القابعة في أكنّة الآثام والرذائل!!

وفي عبارة أخرى تخاطب يزيد مؤكدة أنه أباد نفسه بنفسه حين فعل فعلته تقول له:

«فوالله ما فريت إلاّ جلدك، ولا جززت إلا لحمك...

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)

هذه المفاهيم بثتها زينب في المجتمع، وانتشرت وذاعت بفضل الدماء التي سُفكت في كربلاء، وكانت الشرارة التي أيقظت الناس من سباتهم العميق.

٦- التبكيت:

حينما تكون الضمائر هامدة والنفوس رخوة والإرادة مهتزّة لابدّ من التبكيت الشديد لتكون صعقة لاستثارة بقايا الحياة في هذا

الجسد واستنهاض بقايا الهمّة فيه.

القرآن مارس هذا التبكيت مع المهزومين والضعفاء والمترددين.

وزينب انطلاقًا من هذه المدرسة القرآنية خاطبت أهل الكوفة الذين التفوا حول موكب الأسرى يبكون لهول الجريمة.. يبكون ولكن بكاء من فقد إرادته واستسلم للواقع السيّء.. ولا قيمة لهذا البكاء.. تخاطب زينب هؤلاء فتقول:

«يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا قطعت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا.

أتبكون وتنتحبون؟! أي والله فابكوا كثيرًا واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدًا..

ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أيّ كبد لرسول الله فريتم، وأيّ كريمة له أبرزتم، وأيّ حرمة له انتهكتم؟!».

ولا تقريع أكثر من أن يسمعوا بأنهم فَرَوا كبد رسول الله، وأبرزوا كرائمه وانتهكوا حرمه.

وتخاطب يزيدَ لتخاطب من خلاله كلَّ المسلمين، فتستعرض ما نزل بآل بيت النبوة بصورة مؤثرة جدًا تستفزّ حتى الضمائر الميتة فتقول:

«أمِنَ العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك و إماءك وسوقُك بنات رسول الله سبايا، وقد هُتكت ستورهنّ وأبديت وجوهُهُنَّ، تحدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويتشرفهنَّ أهل المناهل والمناقل،

ويتفحّص وجوههنَّ القريب والبعيد والدنيء والشريف، ليس معهنّ من حماتهنّ حميّ، ولا من رجالهنّ وليّ؟!!

وكيف تُرجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمه بدماء الشهداء؟!!»

بهذا النهج نهضت زينب عليها السلام بدورها التاريخي، فقد استنهضت الهمم وأيقظت العزائم، فانتفضت الأمة تطالب بكرامتها وتستعيد عزتها، وبذلك تواصلت حركة التاريخ الإسلامي التي أوشكت أن تقف وتنتكس، وقدمت عطاءها على مر الزمن، ولا يزال هذا العطاء متواصلا إلى يومنا هذا يؤتي أكله كل حين. غير أن المسيرة يعتريها دائما وبشكل طبيعي الضعف بسبب العوامل المضادة، بل قد يعتريها الركود والخمود، لذلك فإنها بحاجة دائما إلى نهج زينب وصوت زينب ليدفع بالمسيرة إلى أهدافها المنشودة.

«فكد كيدك واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تحو ذكرنا ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض (تغسل) عنك عارها، وهل رأيك إلا فَنَد، وأيامك إلا عَدَد، وجمعك إلا بَدَد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله عى الظالمين. فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

الأدب القرآني
في خطب السيدة زينب(ع)

بعد هذا الاستعراض لدور زينب في مسيرة الحضارة الإسلامية أقف عند الأدب القرآني لهذه السيدة لأبيّن أن ما نهضت به من دور إنما كان نتيجة لتفاعلها مع المدرسة القرآنية.

أقصد بالأدب القرآني هنا تأثير القرآن لفظًا ومعنى في الخطاب الزينبي، وأكتفي هنا بذكر نماذج من هذا الأدب في خطبة عقيلة بني هاشم لأبيّن – كما ذكرت - حقيقة تفاعل هذا البيت الكريم بالقرآن وتربيتهم القرآنية وتوهّج الروح القرآنية في نفوسهم، وانطلاقهم في دعوتهم على أساس كتاب الله العزيز.

أذكر حقيقة أحسبها هامة في واقعنا الراهن، وهي ضرورة حضور القرآن في قلوبنا ونفوسنا وسلوكنا ونهج حياتنا، وهذا لا يتحقق إلاّ إذا تفاعلنا مع الأدب القرآني وعشنا جمال ألفاظه وعباراته وتمتعنا بموسيقاه وأساليبه، كما أنه لا يتحقق إلا إذا شعرنا بكل وجودنا بأننا نحن المخاطبين بآيات الكتاب العزيز. وأذكر هنا

عبارة لإقبال اللاهوري يقول فيها: أكثر ما أثّر في حياتي كلمة سمعتها من أبي يقول: يا بنيّ أقرأ القرآن كأنه أنزل عليك.

إذا تلقينا القرآن بهذا الشكل فسيعيد كلام الله دوره في بناء الفرد الصالح والمجتمع الصالح، وسيتحول في نفوسنا إلى طاقة هائلة تدفع بنا لإعادة وجودنا الحضاري و إلى استعادة عزتنا وكرامتنا.

أعود إلى الأدب القرآني في خطب السيدة زينب عليها السلام.

نقف أولاً عند بعض مقاطع خطبتها في الكوفة.

تقول لأهل الكوفة:

يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون فلا رَقأت الدمعةُ، ولا قطعت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم.

مثّلت السيدة قتلة الحسين وخاذليه بما مثّل به القرآن تلك الجماعة المهزومة المتردّدة التي تردّدت في عهودها وأيمانها فقال لهم الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ، وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل:٩١- ٩٢).

عجيب تشابه المترددين والمتخاذلين.. هذه الجماعة التي يخاطبها القرآن تنقض العهد والأيمان لأنها ترى أمة كفار قريش أربى من أمة المسلمين.

وهؤلاء القوم الذين تخاطبهم زينب يرون يزيد بهيله وهيلمانه وعظمته وسلطانه أربى من الحسين وأهل بيته، فابتلاهم الله بين المصلحة الآنية الضيقة وبين المصلحة الحقيقية التي توفر لهم عز الدنيا والآخرة، فاختاروا عرض هذا الأدنى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

وتقول في مقطع آخر من تلك الخطبة:

أتبكون وتنتحبون؟!! أي والله فابكوا كثيرًا واضحكوا قليلا.

وفي هذا العبارة إشارة رائعة إلى قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:٨١-٨٢).

وفي هذه الآية أيضًا إشارة إلى المتخاذلين المتقاعسين عن التحرك نحو الله، والمنشدّين بالمال والمتاع، والمتذرّعين بأتفه الأمور تبريرًا لوضعهم المتخلّف. وهؤلاء سوف لا تدوم فرحتهم، بل ستعود وبالاً عليهم، وما أشبه المخاطبين في هذه الآية بمن تخاطبهم زينب. وما أروع إشارة زينب في تضمينها القرآني الذي يحمل كل هذه المعاني الكبرى!!

وفي مقطع آخر من نفس الخطبة تقول:

«لقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدا، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شاب

أهل الجنة وملاذ حيرتكم، ومفزع نازلتكم ومنار حجّتكم، ومدره ألسنتكم، ألا ساء ما تزرون، وبعدًا لكم وسحقًا، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضرُبت عليكم الذّلة والمسكنة».

وفي المقطع إشارة إلى أحاديث رسول الله في الحسين وأهل البيت عليهم السلام لا نقف عندها، بل نكتفي بالإشارات القرآنية.

عبارتها: ألا ساء ماتزرون، مستلهمة من قوله سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام:٣١).

ومستلهمة من مقطع قرآني عظيم في دلالته على الموقف يقول سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ، لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ، قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٢- ٢٦).

لاحظ المشتركات بين المقطعين المذكورين:

التكذيب بلقاء الله، المصير الخائب لهؤلاء المكذبين، الأوزار التي تثقل ظهور هؤلاء المكذبين.

عقيلة بني هاشم كانت تخاطب جماعة مسلمة تبكي على مقتل الحسين، ولكنها كانت ترى أن هذا الإسلام لم يبلغ في نفسها درجة الإيمان، ولو كان قد بلغ درجة الإيمان لتحوّل إلى طاقة روحية تأبى الضيم وتدافع عن الحق وتنصر الحسين وتقارع دولة الظالمين. ولكن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، فكانوا للظالمين عونًا، لم يشاركوا مسيرة الحسين إلاّ بدموعهم، ولا قيمة للدموع التي لم تصحبها حركة إيمانية نحو تحقيق أهداف الحسين.

هؤلاء استكانوا للدنيا وانشدّوا بالمال والمتاع ظانين أنهم سيأمنون وسيرغدون، دون شعور منهم بأنّ كل شيء بيد الله لا بتدبيرهم وتقديرهم.

ثم قولها: «بُعدًا» و«سحقًا» من أدب القرآن في مقارعة المنحرفين عن طريق رسالة الأنبياء:

﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(هود: ٤٤)

﴿بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود: ٦٠)

﴿أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (هود: ٦٨)

﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود: ٦٨).

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ٤٤)

﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١١).

وقولها(ع): «فلقد خاب السعي».

تعبير يتكرر نظيره في القرآن الكريم عن خيبة كلِّ الجبارين المفترين والظالمين والفاجرين:

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ابراهيم:١٥).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ (طه:٦١).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (طه:١١١).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس:١٠) .

وقولها: «وتبت الأيدي».

إشارة إلى ما نزل في ذمّ أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:١). وهو ذمّ للمكذبين الذين يقفون في صفّ أعداء الله.

وقولها: «وخسرت الصفقة».

تعبير قرآني يتكرر لدى الحديث عن خسران الذين يركّزون على ذاتهم، ويتعاملون مع كل شيء، من خلال تحقيق مصالحهم الذاتية: مصالحهم ومصالح ذويهم وأهليهم، يقول القرآن عنهم بأنهم لم يحققوا حتى لأنفسهم وأهليهم ربحًا، بل إن كل تعاملهم الذاتي خاسر: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:١١).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون:١٠٣)

﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر:١٥).

ومفهوم الربح والخسارة له أهميته الكبرى في التصوّر القرآني. ومن هذا المفهوم تخاطب السيدة زينب أهل الكوفة بأنهم تعاملوا مع الحسين ومع يزيد بما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية الآنية الضيقة وهي صفقة خاسرة.

وقولها عليها السلام: «وبؤتم بغضب من الله وضُربت عليكم الذّلة والمسكنة».

مستلهم من آية تتحدث عن بني إسرائيل الذين أبوا إلاّ أن يهبطوا إلى أدنى مستوى من الطموح، وأحطّ درجة من الأماني والآمال، فكانت طموحهم وأمانيّهم لا تتعدى شهوات البطن ومتطلبات إفراز المعدة، فذلّوا وحاق بهم عذاب ربّ العالمين بعد أن أبعدتهم هذه الطموحات الهابطة عن السير نحو الأهداف السخية التي وضعتها أمامهم الرسالة الإلهية:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة:٦١).

وأنتقل إلى مقاطع من خطبة الشام، وأبدأها بما بدأت الخطبة به حيث قالت:

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله كذلك حيث يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الروم:١٠).

هذه الخطبة تتجه فيها العقيلة إلى يزيد وتبدأها بهذه الآية التي جاءت في سياق الحديث القرآني عن المتجبرين الذين يتمادون في

غيهم دون الاتعاظ بمن سبقهم من الظالمين. يقول سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا، أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثم كانَ عاقبة...﴾ (الروم:٩ - ١٠).

وفي الآية الكريمة التي تلتها السيدة زينب عليها السلام سنة إلهية تنطبق على كل المتمادين في غيهم والغارقين في طغيانهم، هؤلاء يعمدون إلى تكذيب الرسالات الإلهية كي يتخلصوا من عذاب الضمير ووخز الوجدان، وهي سنة تنطبق على كل الغارقين في أوحال الرذيلة. والاتجاه المادي في النظرة إلى الكون والحياة كان غالبا ينطلق من رفض نفسي لمدرسة الأنبياء قبل أن يكون رفضًا عقليًا وفكريًا. ينطلق من رغبة في إزالة الموانع التي تقف بوجه جموح الشهوات واستفحال الغرائز.

وما أكثر انطباقه على يزيد في سلوكه وفي عدائه للرسالة الإلهية.

وتخاطبه في مقطع آخر بقولها:

«فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك ولتردن على رسول الله(ص) بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من رحمه في عترته لحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلمّ شعثهم، ويأخذ لهم بحقهم:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩).

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق حديث القرآن عن موقف المنافقين بعد معركة أُحد، هؤلاء الذين يتظاهرون بالارتفاع إلى مستوى الرسالة ومستوى التضحية بألسنتهم، ولكنهم في واقعهم حريصون على الحياة الدنيا مهما كلّف الثمن. الآية والآيات السابقة تتحدث عنهم كيف كانوا يخاطبون المؤمنين وكيف كانوا يخاطبون أصحابهم من المنافقين، ثم تبيّن لهم معنى الموت في سبيل الله، والسعادة التي ينالها الشهداء:

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٧-١٧٠).

وما أجمل هذا الدرس القرآني الذي تقدمه زينب ليزيد كما قدّمه جدّها من قبل لمنافقي زمانه.

وفي جزء آخر من هذه الخطبة تقول ليزيد:

«وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس

للظالمين بدلا وأيكم شرّ مكانًا وأضعف جندًا».

وفي العبارة تضمين مقطع قرآني يتحدث عن اغترار المنحرفين عن طريق الله بظواهر الحياة الدنيا وزينتها وبهرجتها، معتبرين هذه المظاهر الدنيوية معيارًا للتفاضل. وهؤلاء الذين مكّنوا ليزيد من رقاب المسلمين ما أرادوا إلا هذا المتاع الرخيص، وإلاّ هذه المغانم الزائلة وهذا العَرَض التافه.

يقول سبحانه متحدثًا عن منطق التفاضل عند هؤلاء المنحرفين ويردّ عليه بأنه منطق تافه سرعان ما ستتبيّن تفاهته إما في الدنيا وإما في الآخرة، وسرعان ما سيعلمون أن معيار تفاضلهم كان يقوم على أوهام: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا، وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا، قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ (مريم: ٧٣-٧٥).

وتقول عليها السلام في مقطع آخر من خطبة الشام:

«ولئن اتّخذتنا مغنمًا لتجدنَّنا وشيكًا مغرمًا حيث لا تجد إلا ما قدّمت يداك وما ربّك بظلاّم للعبيد».

وهذا مستلهم من سياق قرآني يركز على النفر الذي يركبه الغرور فلا يهتدي بعلم ولا يستنير بكتاب، بل يدفعه استكباره إلى إضلال الآخرين فيقول عنه القرآن الكريم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيد﴾ (هود: ٨-١٠).

وكم هي قريبة مناسبة الخطاب القرآني ومناسبة الخطاب الزينبي!! وما أجمل التضمين والسياق!!

وتقول في نهايات الخطبة:

«وهل رأيك إلا فَنَد وأيامك إلا عدد وجمعك إلاّ بدد يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين».

تضمين قرآني مستلهم من سياق قرآني يتحدث أيضًا عن المكذبين والمفترين على الله. يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (هود:١٨).

من الضروري حضور القرآن في قلوبنا ونفوسنا وسلوكنا ونهج حياتنا، وهذا لا يتحقق إلاّ إذا تفاعلنا مع الأدب القرآني وعشنا جمال ألفاظه وعباراته وتمتعنا بموسيقاه وأساليبه، كما أنه لا يتحقق إلا إذا شعرنا بكل وجودنا بأننا نحن المخاطبين بآيات الكتاب العزيز

استدعاء شخصية الحسين

كيف رسم الحسين بفرشاته تلك اللوحة التي توجها بلون الدم القاني؟ وكيف استطاع أن يرسم على الرمال تلك الدروب التي تقود خطانا منذ القرن الأول للهجرة وحتى الوقت الحاضر إلى سماع الصيحة؟

وكيف وظف الشعراء تلك اللوحة بخطوطها وانحناءاتها وألوانها في شعرهم منذ عام ٦١ هـ وحتى ديوان الشعر المعاصر. وكيف برز الرمز الحسيني وما يتعلق به كربلاء... الطف، وعاشوراء من خلال قصائد الشعر ومدد الكلمات والجراح؟

منذ فاجعة كربلاء سجل الشعر حضوره، واستطاع الشعراء تسجيل مواقفهم بعدًا أو قربًا من تلك الفاجعة.. وظهر لون جديد من الشعر عُرف بالمكتمات لعدم قدرة الشاعر على الجهر بهذا الصوت الشعري الجديد..

لقد عبر الشعراء (عن) رمز الفاجعة الأوحد ولم يعبروا (بهذا) الرمز فترى قصائدهم تسجيلاً لتلك الفاجعة بشخوصها وخيلها.. وتسمع من خلالها صليل السيوف ومطاعن الرماح.. وهذا اللون ساد فترات طويلة، وامتاز بمباشرته وتقديريته.. أي أن هذا الشعر كان تأريخًا وتسجيلاً لتلك الحادثة المأساوية..

لقد كان التراث والرموز التراثية في كل العصور بالنسبة للشاعر هو الينبوع الدائم للتفجير بأصل القيم وأنصعها وأبقاها، والأرض الصلبة التي يقف عليها ليبني فوقها حاضره الشعري الجديد، والحصن الذي يلجأ إليه كلما عصفت به العواصف فيمنحه الأمن والسكينة..

في الشعر العربي المعاصر أصبح توظيف الشخصية التراثية يأخذ منحىً جديدًا، وهو المنحى التعبيري الذي يحمل بعدًا من أبعاد تجربة الشعر المعاصر.. بعبارة أخرى أن تلك الشخصية تصبح وسيلة تعبير و إيماء في يد الشاعر يعبر من خلالها -أو بها عن رؤياه المعاصرة..

وهذا التوظيف للشخصية التراثية هو آخر الوشائج في علاقة الشاعر المعاصر بموروثه.. وأصبحت ظاهرة التوظيف هذه شائعة في شعرنا المعاصر وسمة بارزة فيه..

وكان التراث المستلهم هو هذه الأصوات التي سمعناها والتي استطاع الشاعر المعاصر من خلالها أن يعبر عن أفراحه وأحزانه، وأن يبكي هزيمته أحرّ البكاء وأصدقه وأفجعه، وأن يتجاوز تلك الهزائم والفجائع في نفس الوقت بينما كان كل كيان الأمة ينوء منسحقًا تحت وطأتها الثقيلة وأن يستشرف النصر ويرهص به في أفق غامض فيه بيارق النصر..

إن حالات الرفض التي استحضرها شعراؤنا ليواجهوا بها حيرة هذا الزمان واشتداد الطغيان فيه هي إشراقات الوعي والشهادة في سبيل الحرية.. و إذا كانت هذه الرموز غائبة عن الرسمي من

الكتب فإنها حاضرة في الوجداني من صدور الناس تمثل احتجاجهم على فشل الواقع في تحقيق زمن التنوير في نهضة يكون للفقراء والزنج والإمام الحسين وأبي ذر الغفاري فرصتها وعدالتها وقصائدها العظيمة..

ويمكن تصنيف الشخصيات التاريخية التي استخدمها الشاعر المعاصر إلى نوعين رئيسيين تمتّ كلها بصلة إلى طبيعة الظروف التي كانت تمر بها الأمة العربية في نصف القرن الأخير هي بحسب استحواذها على اهتمام الشعراء:

أولا: أبطال الثورات والدعوات النبيلة الذين لم يقدر لثوراتهم أو دعواتهم أن تصل إلى غايتها فكان مصيرها ومصيرهم الهزيمة الظاهرية، ولم يكن سبب هذه الهزيمة نقصًا أو قصورًا في دعواتهم أو مبادئهم و إنما كان سببها أن دعواتهم كانت أكثر مثالية ونبلاً من أن تتلاءم مع واقع ابتدأ الفساد يسري في أوصاله..

ثانيًا: شخصيات الحكام والأمراء والقواد الذين يمثلون الوجه المظلم لتاريخنا سواء بسبب استبدادهم وطغيانهم، أم بسبب انحلالهم وفسادهم، وكذلك الشخصيات التي استغلها هؤلاء كأدوات للقضاء على الدعوات والقيم النبيلة في عصرهم.

و إلى جانب هذين النوعين الرئيسيين ثمة شخصيات أخرى قد لا تندرج اندراجًا مباشرًا تحت أي نوع من هذين النوعين، ولكنها تمت بصلة أو بأخرى إلى هذا النوع أو ذاك، وذلك مثل شخصيات الشهداء الذين انتصرت القيم والمبادئ التي استشهدوا من اجلها..

وسيكون النوع الأول هو محور هذا الموضوع..

وأبرز من فتن شعراءنا من شخصيات النوع الأول شخصية الحسين(ع) ـ وتكاد تكون أكثر شخصيات الموروث التاريخي شيوعًا في عصرنا المعاصر ـ فقد رأى شعراؤنا في الحسين(ع) المثل الفذ لصاحب القضية النبيلة الذي يعرف سلفًا أن معركته مع قوى الباطل شهادته وشهادة أصحابه،ولكن ذلك لم يمنعه من أن يبذل دمه الطهور في سبيلها، موقنًا أن هذا الدم هو الذي سيحقق لقضيته الانتصار والخلود، وأن في استشهاده انتصارًا له ولقضيته..

وبهذه الدلالة استدعى شعراؤنا شخصية الحسين ليعبروا من خلالها عن أن الهزيمة التي تلقاها الدعوات والقضايا النبيلة في هذا العصر، واستشهاد أبطالها المادي أو المعنوي إنما هو انتصار على المدى الطويل لهذه الدعوات والقضايا..

ويأخذ الحسين(ع) موقعًا متميزًا في مسيرة الشهادة من وجهتي النظر التاريخية والفنية، وتحضر كربلاء رمزًا للأسى والجراح والحزن والندم، وقد أخذ الرمز ببعديه التاريخي والشعبي حيزًا في جملة من القصائد، وأصبح النداء باسمه إشارة رمزية للغضب والحزن والشهادة في أعلى أبعادها الدينية والشعبية معًا في سبيل الموقف، بل وصار رمزًا لخذلان الثائر العظيم من مؤيديه..

وفي مأساة الحسين باعتبارها من المآسي الكبرى تقع ـ كما يقول جبرا إبراهيم جبرا ـ«أنواع شتى من مآسي الإنسان في جو القيظ والعطش والقسوة والقتل الجماعي وحز الرؤوس، هناك مأساة

الجنون البشري، ومأساة الخيانة، ومأساة القتل المجاني، وكذلك مأساة المروءة والفضيلة.. الحسين أكبر من الحياة، ولعله لكبره وعلوه خارج الدائرة التي يمكن للمرء ضمنها أن يتوحد مع البطل رغم تطلعه إليه ولذا يكون التعبير الفني عنه قاصرًا على مداه الفاعل» صورة الحسين حاضرة في بعض قصائد عبد الرزاق عبد الواحد، ومنها ألواح الدم التي يستدعي فيها الحسين ويجعله نداءًا عظيمًا يهتف به:

يا حسين
إن للصمت في أرضنا آيتين
أن يكون كريمًا، عظيمًا، رحيمًا، كصمتك
ممتلئًا بالمروءة، ممتلئًا بالنبوة، ممتلئًا بالنشوز
غبشًا يتوسط بين انتهاء الحياة وبدء القيامة
وعليه علامة
إنه مفعم بالحضور.. أو يكون كصمت القبور[1].

ويأخذ رمز الحسين موقعًا عميقًا في بعض قصائد شوقي بزيّع، فهو الرمز الضدّ لكل ما هو سائد ومهزوم، إن توحّد راس الحسين بجسده من جديد يعني عودة الحياة إلى نقائها ويعني بعث الحياة من جديد..

سيأتي زمان الولادة

---

(١) آفاق عربية/ السنة العاشرة/كانون الأول/١٩٨٥/ العدد ٤/١٢.

والفصل بين الخلافة والسوط
شيء يعيد الملايين بعض إله
ويقذف في الصدر نارًا
ويرجع رأس الحسين وجسم الحسين سويّا..[1].

أما عند أمل دنقل فإن حالة كربلاء وعطش الحسين تصبح رمزًا لسؤال كبير في الورقة السابعة من قصيدته «من أوراق أبي نؤاس» حيث يقف الشاعران (أبو نؤاس ـ أمل دنقل) أمام ضمأ الحسين، أمام جرعة الماء التي مات ولم تمنح له.. إنه الموقف الحق الذي يُستباح لأن ضعاف النفوس يعميهم الذهب:

كنتُ في كربلاء
قال لي الشيخُ إنّ الحسين
مات من أجل جرعة ماء
وتساءلت: كيف السيوف استباحت بني الأكرمين
فأجاب الذي بصّرته السماء
إنه الذهب المتلألئ في كل عين
... مات من أجل جرعة ماء
فاسقني يا غلام صباح مساء
اسقني يا غلام
علّني بالمدام

(١)شوقي بزيع/عناوين سريعة لوطن مقتول/ ص٦٧.

أتناسى الدماء[1].

ويستدعي قاسم حداد الحسين ليكون راية السائرين في زمان الشاعر نحو هدف أعلى في قصيدة يرسم فيها ملامح الثورة وأزمتها في الواقع العربي المعاصر... ويعطي القصيدة عنوانًا دالاّ هو «خروج رأس الحسين من المدن الخائنة»:

نسير ونعرف كيف نشق التراب، ونبذر داخله
كيف نحزّ الرؤوس ونزرعها عبر كل العصور
فنحن الحسين المسافر من كربلاء
ورأس الحسين الممزق بين دمشق وبين الخليج
ونحمله نستريح على سورة المومياء[2].

ويضمّن قاسم حداد في القصيدة نفسها، عبارة السياب من قصيدة «أنشودة المطر» وهي «ما مر عام والعراق ليس فيه جوع» ويضع كلمة «الخليج» محل كلمة «العراق» ويطوّع الرمز:

ويستقبل الجوع رأس الحسين، ويفتح باب الحريق
ليدخل رأس الحسين.

آنذاك تقام سرادق الأعراس وتصير البلاد عروسًا لها ألف طفل، وتنهّد جدران المسافات، ويحمل الجمع رأس الحسين (الرأس هنا رمز الثورة، والتوحّد بالجسد غير وارد)، فالثائرون يحملون رأس

(١).أمل دنقل/الأعمال الكامله/ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٢)قاسم حداد/خروج راس الحسين من المدن الخائنة/ص٦٥.

الحسين ويسيرون إلى مدن النار وتبدأ الثورة في الخليج..

وهذه القصيدة ذات بناء يتنامى فيه غضب ورؤية لزمان قادم، مستمدة من وعي بالرمز الأصل، وهو رأس الحسين الذي حمل إلى عبيد الله بن زياد ثم إلى يزيد بن معاوية: رأس الحسين الذي يتحول إلى راية في زمن آخر احتجاجًا على الظلم والموت والحيرة والقلق..

وهناك نص هو «العودة إلى كربلاء» لاحمد دحبور، وهو معادل للإنسان الفلسطيني الذي ووجه بالخذلان، وأدخل إلى نار المذبحة، وفار دمه ودم أهله، كما فار دم الحسين وأهله في كربلاء.. إن الرمز هنا لكربلاء الفلسطينيين: الأسى والعطش والحصار والغضب والمأساة.. إنه البحث عن ماء في زمن العطش، لقد وصل إلى كربلاء رغم الطرق المغلقة، ورغم مشقة الطريق آملاً أن تكون البداية، ووجد الحسين نفسه وحيدًا في المواجهة بينما تقاسم الآخرون أسرارهم وثمر النخيل.. إنهم الذين خذلوا الفلسطيني المعاصر:

شاهدتهم، ومعي شهودي
أنت، والماء الذي يغدو دمًا
ودم لديهم صار ماءْ
والنخيل
شاهدتهم ـ عين المخيم فيّ لا تخطئ ـ وكانوا:
تاجرًا، ومقامرًا، ومقنعًا، كانوا دنانير النخيل
ودخلت في موتي وحيدًا أستحيل

وطنًا، فمذبحة، فغربة..

يا كربلاء، تفور فيّ النار،

أذكر كيف تنقلب الوجوه[1].

وحضور الرمز هنا استدعاء مباشر ليقول من خلاله ما يريد، وهو رمز لا يحتاج إلى بناء مركب في مثل هذا النص المباشر أيضًا، أي الذي يريد صاحبه الاحتجاج من خلاله على القتل، ويريد أيضًا أن يتحول الدم ـ كما تحول دم الحسين ـ إلى محرّض، ودعوة لثورة مستمرة، لخروج الماء من أرض كربلاء لتروي عطش الحسين:

آتٍ على عطش وفي زوادتي ثمر النخيل

فليخرج الماء الدفين إليّ.. وليكن الدليل..

ومن صور توصيف مأساة مقتل الحسين وما حلّ بأصحابه واهل بيته مقطع من قصيدة لحميد سعيد يشير فيها إلى فلسطين، إذ يمزج بين حزن النساء على فلسطين، وبين حزنهن التاريخي على الحسين وهو حزن بنات الحسين:

...وفلسطين لما تزل في دمي

شغف

النساء تحدثن عنها.. بكين.. وقلتُ:

لعل فلسطين واحدة من بنات الحسين... [2].

---

(١) ديوان احمد دحبور/ص٢٥٨-٢٦٢.

(٢) .ديوان حميد سعيد/ ص١٧٣.

هذه أمثلة من قصائد وظفت كربلاء ومأساة الحسين وأهله في محاولات من الشعراء للتعبير بها عن أبعاد مأساة العربي المحاصر: بين حدّي الظمأ إلى الحرية والتقدم، وقيد السلطة وظلم الولاة/الحكام..

ويمكن اعتبار تعامل (أدونيس) مع تجربة الحسين من التجارب العميقة في توظيف المأساة، ففي «مرآة الرأس» يقدم حوارًا بين رجل وزوجته، فقد احتزّ الرأس وعاد إليها يبشرها بمال الدهر، لكنها ترفضه عند ما تعرف انه عاد برأس الحسين:

أبشري،
جئتك بالدهر، بمال الدهر
ـ من أين، وكيف، أين؟
ـ برأسه...
ـ ويلك يوم الحشر
ويلك لن يجمعني.. طريق أو حلم أو نوم
إليك بعد اليوم
وهاجرتْ نوّار..[1].

إن إسقاط الخبر التاريخي والحكايات الدينية الشعبية عن النص الشعري هنا، والاكتفاء بهذه الإشارة العميقة يحقق نصًا يتقدم على غيره من نصوص وظفت مأساة الحسين..

(١) أدونيس/المسرح والمرايا/مرايا وأحلام حول الزمن المكسور ١٦ و١٧ ص٨٣ و٨٤.

وفي «مرآة الشاهد» صورة عميقة أخرى لاستيعاب الحالة كلها وصياغة حوار بين زمنين متباعدين لحالتين قديمة ومعاصرة ضمن رؤية جديدة، وصياغة فنية للتعبير عن موقف نضالي يقدم من خلاله إحساس الغضب والألم باعتبارهما حافزين للناس على الثورة، وفي لوحة إنسانية عميقة الصدى في التعبير عن التجربة، وهذه القصيدة تعبر عن أن استشهاد الحسين قد أحدث أثره في كل مظاهر الوجود وفي هذه اللازمة التي تذكرنا بالنشيد الجماعي :الحسين.. الحسين عليه السلام.

حينما استقرت الرماح في جسم الحسين،
وازّيّنت بجسد الحسين،
وداست الخيول كل نقطة في جسد الحسين،
وأستلبتْ، وقسمت ملابس الحسين،
رأيت كل حجر يحنو على الحسين،
رأيت كل زهرة تنام عند كتف الحسين،
رأيت كل نهر يسير في جنازة الحسين (ع) [1]

والمرآة الثالثة عند «أدونيس» لمسجد الحسين إذ تطوف حوله الأشجار والسيوف:

ألا ترى الأشجار وهي تمشي
حدباء
في سكر وفي أناة

(١) أدونيس/المسرح والمرايا/مرايا وأحلام حول الزمن المكسور ١٦ و١٧ ص٨٣ و٨٤..

كي تشهد الصلاة ألا ترى سيفًا بغير غمد
يبلى
وسيّافًا بلا يدين
يطوف حول مسجد الحسين(ع)[1].

إن نموذج أدونيس هنا يقدم الرمز البطل بدلالات قيمته النفسية، والحسين هنا «بطل التراجيديا» وليس مجرد «بطل التاريخ» الحقيقي..

لقد تحولت الحقيقة التاريخية إلى أسطورة، وخلق الشاعر من الأسطورة ومن رؤيته حالة جديدة للبطل هي حالة الحضور الحدسي الوجداني، وأصبح موت الحسين علامة وجوده المستمر، وأصبح التلاحم بين الحسين وبين الجمهور المشبع بذكراه يمر من خلال قصيدة، بعد أن كان يمر من خلال التاريخ والسيرة الشعبية..

وفي قصيدة «الصخرة والندى» للشاعر حسب الشيخ جعفر يصور فيها أن الحسين .رمز كل شهيد في سبيل قضية نبيلة .اصبح راية تلتفّ حولها الجموع، فحينما استقر به المطاف:

رأسًا وحيدًا متربًا مقطوع
في طبق من ذهب يضوع بالمسك والحنّاء
رأى وجه أمه الزهراء
مبللاً طوال ليل الموت بالدموعْ
ورفرفتْ حمائم بيضاء

---

(١) المصدر السابق/رقم١٨ ص٨٥..

تؤنسه طوال ليل الموت كالشموعْ

وبعد معاناة عذاب الاستشهاد وآلامه يغدو رأس الحسين الشهيد راية تسير وراءها الجموع:

أيتها الشمس

طاف على الرمح، وها عاد إلى منبته الرأس

حيًا، مكرَّرًا، بيرقًا مغير[1].

وهناك نموذج آخر لمظفر النواب وهو «وتريات ليلية» ففيه نلحظ غضبه العفيف من أبي سفيان (رمز شورى التجار) و إيقاظا لرمز الإمام علي مستفيدًا من الصورة التاريخية لأحداث كربلاء وشخوصها:

ماذا يقدح في الغيب؟

أسيف عليّ

قتلتنا الردة يا مولاي كما قتلتك بجرح في الغرّة

هذا رأس الثورة

يحمل في طبق في قصر يزيد

... ويزيد على الشرفة يستعرض أعراض عراياكم ويوزعهنّ كلحم الضأن

لجيش الردّة..

ويصبح نداء الثورة مشتعلاً

ونداء لملك الثوار أن يظهر من جديد[2].

---

(١) حسب الشيخ جعفر/ديوان (نخلة الله) ص٨.

(٢) مظفر النواب/ وتريات ليلية/ص٢١-٢٣..

والى جانب هذه المداليل العامة لشخصية الحسين، عبّر الشعراء به عن قضية أخرى، وهي تفرد أصحاب الدعوات الكبرى ووحدتهم وسلبية الجماهير إزاءهم و إزاء دعواتهم، لأن القضايا الجليلة لا يقوى على حملها إلا المجاهدون الكبار...

في قصيدة «واتكأ على رمحه» للشاعر ممدوح عدوان يصور الشاعر من خلال تصويره لوقوف الحسين حاملاً جلال قضيته ونبالة إصراره على عدم التنازل عنها بعد أن انفض من حوله أصحابه عند اشتداد الكرب حين حال جيش بن زياد بين الحسين وبين الماء ورفض أن يسقيه إلا إذا بايع ليزيد، نرى وقفة أصحاب الدعوات في كل العصور:

حين أتاك ذلك النداء
إن كنت تبغي شربة من ماء
فدع على الرمال هذا السيف
لم يبق واحد من الصحابة
وكنت واقفًا تحيطك الغرابة
وسط أتون الصيف[1].

ومن خلال هذا الموقف ذاته يدين شاعرنا المعاصر تقاعس الأمة وسلبيتها الذميمة حين تنتهك حرماتها، ويصبح أنبل ما فيها كلاً مستباحًا لقوى الفساد والطغيان...

في قصيدة «الفارس الصريع وكربلاء الهزيمة» للشاعر راضي

(١) ١٣ ـ مجلة الآداب/تشرين الأول/١٩٦٧/ص٨.

مهدي السعيد، يعبر الشاعر من خلال تصويره لمأساة الحسين في كربلاء عن إدانته لسلبية الأمة وتقاعسها وجبنها:

في كربلاء الامس كان الجرح والهزيمة
لأمة لم تحمل الراية حين شبّت السيوف
وأخترقت مفاوز الصحراء خيل تمتطيها أذرع لئيمة
ترهب فارسًا أتاها يزرع الحتوف
في أعرق تشدها خطى محاريب
سنين شمسها رميمة[1].

ويتداعى الواقع العربي منهارًا في النص ويشتعل الإيقاع غضبًا، يستعين بالغاضبين الثائرين من رموز الرفض والثورة في تراثنا العربي الإسلامي، بأولئك الذين يشكلون النماذج العليا تاريخيًا، وشعبيًا، وسلوكيًا .ولا يفوتنا أن نذكر استحضار مأساة الحسين في المسرح العربي المعاصر من خلال ما كتبه عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيته *الحسين ثائرًا والحسين شهيدًا* ومسرحية *ثانية يجيء الحسين* لمحمد الخفاجي ومسرحية *هكذا تكلم الحسين* لمحمد العفيفي ومسرحية *كربلاء* لوليد فاضل.

وتبقى مأساوية استشهاد أصحاب الدعوات النبيلة هي الأكثر استحواذًا على خيال شعرائنا ووجدانهم..

---

(١)راضي مهدي السعيد/ مرايا الزمن المنكسر/ ص١٩٦.

تحقيق عن دور القصيدة في تجسيد الملحمة الحسينية

عصام حاكم

لا شك بأن القصيدة الحسينية كان لها حضور فاعل وصدى طيب في استحضار واقعة الطف أو « ملحمة عاشوراء».

كما وقع على عاتق القصيدة الحسينية مسؤولية الحفاظ على روح الثقافة الحسينية، من خلال استعراض الجوانب المهمة للنهضة الحسينية، من مقارعة الظلم إلى الصبر إلى الإيمان إلى الصدق إلى الوفاء إلى كل المعاني والمعطيات التي أفرغت على ثرى الطف.

وللقصيدة باع طويل في رسم الصورة الشعرية المعبرة والمؤثرة، من خلال تجسيد البطولة وفلسفة الشهادة وحماس التضحية، لذا ترى القصيدة الحسينية قد أثرت الأدب العربي بالشيء الكثير، من خلال ما تناولته من قضايا إنسانية واجتماعية هامة، بيد أنها كانت تتسم في عموم مفاصلها بمسحة الحزن المشحون بعامل التغيير.

وللوقوف عند أدب القصيدة الحسينية حاولت «شبكة النبأ»ان

تفتح أفاق القصيدة الحسينية من خلال أراء بعض الأدباء والشعراء الحسينين فكانت الحصيلة ما يلي:

كانت وقفتها الأولى مع الشاعرالحسيني هاشم العربي فأجاب مشكورًا:

في البدء لا يسعني إلا أن أعزي كل العالم العربي والإسلامي، بهذا المصاب العظيم، وهو ذكرى أستشهاد سبط النبي وأبى الأحرار وسيد الشهداء الإمام الحسين(ع)، أما من جهة القصيدة الحسينية فهي تعبيرحي عن حالة المشهد الحسيني بكل مفاصله، والقصيدة الشعرية بحد ذاتها لها القدرة على تصوير الحدث بشكل دقيق كما أن الإبداع الشعري هو الآخر قد يخلق فضاءات أقرب ما تكون للمشهد الحقيقي، لذا أصبحت القصيدة الحسينية لها أثر كبيرفي الأدب العربي لما تمتلكه من أدوات تعبيرية وأجواء إنسانية عاليه.

أمام الشاعرالحسيني«احمد السلطاني» فقد قال:

لا يمكن أن نقف أمام القصيدة الحسينية أو الأدب الحسينية بهذه العجالة، ولكن حضورالقصيدة الحسينية مرهون بحضورواقعة الطف، ولكون ملحمة عاشوراء هي ملحمة إنسانية بحتة، لذا تجد القصيدة الحسينية تتملك النفوس والقلوب، لما تحمل من معاني إنسانية جياشه، هذا مما يعطي القصيدة حضورًا وجدانيًا عاليًا لا يمكن بأي حال من الأحوال لأي قصيدة أن تصمد امامه.

أما الشاعر«محمد الغريب» فكان له رأي آخر، فهو يرى:

إن القصيدة الحسينية ماهي الإ غيض من فيض الثقافة الحسينية. ففكرالحسين(ع) كان مصدر الإلهام الادبي لهذه القصيدة،لذا ترى القصيدة الحسينية قدأمتلات بالأجواء الإنسانية والإسلامية، وهذا حتمًا يمنحها أفق يسمو على كل الجوانب المادية الأخرى.

أما الأستاذ عدنان عباس سلطان عضو اتحاد الأدباء العراقيين فإنه يقول:

لم تكن القصيدة وحدها هي التي تأثرت بواقعة الطف، بل كل شيء قد تأثر هو الآخر كالأدب والقصة أيضًا، ولكن يبقى للشعر خاصيته للتأثير، كما ان الشعر له قدرة لا تضاهيها في تصوير الحدث، ومن ثم له القدرة على رسم فضاءات متحركة هي كل الواقع بل ربما هي أعلى، لذا ترى القصيدة احتلت مساحة أوسع من باقي أنواع الإبداع الحسيني.

ويضيف: من دون ادنى شك،فالقصيدة الحسينية استطاعت أن تكون الوجه الأبرز في رسم العزاء الحسيني، بالإضافة إلى أن القصيدة قد منحت ملحمة عاشوراء، بعدًا آخر من خلال ما تخلل القصائد من مفاهيم ومعان هي أقرب ما تكون إلى حالة التواصل أو الامتداد الرسالي بأسلوب حضاري يمزج ما بين مشهد الطف وكربلاء اليوم.

ماذا لو نضب صلب الأديب
وأجدب رحم الأدب؟!

نضير الخزرجي

العقلانية والروحانية والوجدانية والحيوانية، مفاهيم أربع، يحمل كل واحد منها مدلوله، كما له شخوصه ومصاديقه، فيقال لفلان أنه عقلاني أو عقلائي في قراراته وتصرفاته ويزن الأمور بميزان العقل، فيستفيد ويفيد، ويقال لعلان أنه روحاني يزن الأمور بعين البصيرة على خلفية دينية، قد يعتزل الناس فلا تنفع روحانيته إلا نفسه والعدد القليل من المحيطين به، وقد يعيش حياة الناس وينزل إليهم فينفع الناس ويطير بهم من وادي الحياة وشجونها إلى مراقي النجاة وحبورها، وقد يقال لثالث أنه وجداني، يضع قاطرة حياته على سكة الفطرة والعاطفة، فالأولى تعدل من ميلان الثانية، والثانية تلين من تصلب العقلانية، والأولى تلملم من فضفاضية الروحانية، وقد يعيش رابع حياة الضر والنكد، لا يقيم للحياة وزنًا، همّه من الدنيا مصلحته وإن تحققت على حساب معاناة الآخرين كالبهيمة همّها علفها، فالعقلانية عنده تخلف والروحانية رجعية والوجدانية سلاح الخائبين.

والإنسان يتحرك في إطار هذا المربع، قد يقترب من أحد الأضلاع

فيوصف به، وقد يبتعد عن ضلع فيوصف بالآخر، والإنسان السوي هو الذي يمارس حياته داخل هذا المربع دون إفراط وتفريط، يستهدي بالعقل وعيناه الروحانية والوجدانية، ولا تميل نفسه إلى الحيوانية، وإنما يأخذ من الدنيا نصيبه ومبتغاه الدار الآخرة، وهذه صفات ندر حصولها إلا في الخلص من عباد الله، ولكن الإنسان يظل يصارع الحياة من أجل التأقلم ضمن هذه الأضلاع بما فيه سعادة الدارين.

زورق الوجدان:

وحيث يميل التجريبي إلى العقلانية والعالم إلى الروحانية والجاهل إلى الحيوانية، فهل لنا أن نضع الأديب في خانة الوجدانية؟

لاشك أن الواقع يقول بهذا التلازم، ولكن من حيث الاستقراء فإن من العظماء العقلاء عظماء في الأدب وإن من يقف على قمة الروحانية قد يقف في الوقت نفسه على قُلَّة الأدب، وإن من الهزبر في ساحة النضال صباحًا تراه عبدًا ذليلا في ساحة العبودية ليلاً، فليست هناك تقاطعات عند البعض وهم قلة، لكن الثابت أن الشعراء يتنقلون في مسار حياتهم الأدبية في محاذاة الأضلع الأربعة، يقودهم في رحلتهم الأدبية حادي الشعور، وقد يكون الشعور ملتزمًا فتأتي القصائد قريبة من الوجدان القريب هو الآخر من الروحانية والعقلانية، وقد يكون الشعور منفلتًا فتبتعد أبيات القصائد عن دور الوجدان وتنأى بعيدًا عن مدينة العقل والروح وتوغل في وديان

الحيونة، فتكون الأبيات مرتعًا للرذيلة من خدش للشعور الإنساني أو الطعن بالأعراض أو تعظيم المستبد، وللانتصار أو الاستغراق في التفاخر أو الهجاء...

صورة ضبابية:

ولما كان النظم لا ينبع من معين الشاعر فحسب، وإنما هو يجري بفعل تقلبات الحياة وتأثيراتها على مشاعر الناظم، فان المحقق الدكتور محمد صادق الكرباسي الكرباسي عكف في كل قرن هجري جديد أن يمهد لديوان الناظمين في الإمام الحسين (عليه السلام) بمقدمة وافية عن الظروف السياسية والاجتماعية لذلك القرن، لأن الظرف الذي يعيشه الشاعر ينعكس بشكل كبير على قصائده، ومعرفة الظروف تظهر النقاط المخفية من لوحة الحياة، وتضيء الزوايا المظلمة من أبيات الشاعر، الذي قد يتستر بدرع التورية للابتعاد عن سياط الحاكم، بلحاظ أن الشاعر ـ مع قصور وسائل الإعلام في تلك المراحل الزمنية ـ كان يمثل سنام الإعلام، فإما أن يكون ناطقًا بلسان الشعب أو أن يكون شاعر البلاط، ولكل موقف ضريبته، وفي مثل هذه المواقف الخطيرة لا يحسد عليها الشاعر الحر.

ويقدم الشيخ الكرباسي صورة ضبابية في قراءته لأدب القرن الثاني عشر الهجري الواقع معظمه في القرن الثامن عشر الميلادي، فعنده: «إن هذا القرن كان من القرون المظلمة بحق، حيث لم

ينهض الأدب بجناحيه نهوض الأسد بعد رسوبه في خريف الغابة وشتائها، وظل يعرض تارة ويتقاعس أخرى، ولم يظهر فيه إلا بصيص من النور الذي جعله يوصل الماضي بالحاضر ليؤهله للمستقبل، فكان في حياة سريرية قلّ فيها كتاب النثر والقصيدة»، وأرجع ذلك إلى تأصل حركة ثقافية عثمانية في تتريك العرب من جانب، ومن جانب آخر ظهور الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، حيث أضعفت الأولى الأدب العربي وساعد على تخشّب في صلب الأدباء وركاكة في رحم الأدب، وأشغلت الثانية الكتاب والأدباء في الحديث عنها بين مؤيد ومعارض. ولم يقتصر ضعف الأدب بعامة والشعر بخاصة في منطقة بعينها، أو قوم أو شعب أو أمة، و إنما هي حالة عامة، وبخاصة وأن هذا القرن كان يشهد صراعات محلية و إقليمة ودولية، ولذلك يرى المحقق الكرباسي أن التراجع في النظم شمل أوروبا أيضًا التي استغرقت في الأدب النثري المسرحي، كما أن النقاد قالوا بسيادة المذهب الكلاسيكي في النظم في أوروبا في النصف الأول في هذا القرن، في حين شهد النصف الثاني منه شيوع المذهب الرومانسي، لكن الغرب في الوقت نفسه وعلى صعيد آخر أعطى للعقل مساحة كبيرة في حياته، مما جعل حركة التنوير تأخذ طريقها في المجتمع الغربي الذي أثر إيجابيًا على العطاء الأدبي، على أن الشعر في العالم العربي نزع فيه الشعراء إلى الأسلوب الفني السردي، بجانب عزوف السلطات العثمانية عن الاهتمام الكافي بالأدب العربي

المنثور منه والمنظوم، وحسب المستشرق الألماني كارل بروكلمان (Carrel Brokelmann) (1868-1956)، إن: «الضعف الذي اعترى السلطة كان متوازيًا مع ذلك التدني في الحياة الفكرية، فلم تكن شخصيات السلاطين العثمانيين أو وزراؤهم تظهر ميلا إلى رغبة تجاه النواحي الأدبية»، وحسب الكرباسي: «آثرت السلطنة العثمانية قوميتها ومصالحها على مصالح المسلمين ولغة القرآن، فضعفت اللغة العربية وآدابها»، ولهذا دفع العرب الضريبة وبخاصة العراق الذي وقع بين كماشتي الصراع التاريخي القومي بين الدولتين العثمانية والإيرانية، الذي ألبسوه لباس المذهبية لدغدغة مشاعر المسلمين، وظل أسير هذا الصراع إلى يومنا هذا يدفع ثمنه الشعب.

أمة بعد أختها:

وتابع المؤلف الواقع السياسي في العالمين العربي والإسلامي، وسقوط حكومات وقيام أخرى، وتأثير ذلك على الأدب، فقد نشأت دولة الإمارات العربية وقامت دولة الكويت، وسقطت الدولة الصفوية وقامت محلها الدولة الأفشارية، ثم سقطت هي الأخرى وحلت مكانها الدولة القاجارية، وسقطت الدولة الهشدرخانية في أفغانستان وقامت في أفريقيا سلطنة زنجبار التي حكمها آل سعيد في عُمان، ونشأت المملكة العربية السعودية، وقامت دولة أوده بالهند، والدولة الدرانيّة في أفغانستان، وهذه حال الأمم، فبعضها قامت على أنقاض الأخرى بصورة سلمية وأخرى بصورة عنفية،

وكلما دخلت أمة لعنت أختها، ولا يخفى أن الضحايا في طريق التغيير المسلح كثيرين، ومن ذلك الأدب الذي تغيب فيه قمم شعرية تحت جليد الإرهاب، وتظهر فقاعات شعرية بفعل سلطات تبحث عن نصر معجل أو موهوم!

وعلى ضوء القراءة السياسية للواقع في القرن الثاني عشر الهجري، تستبين القراءة الأدبية، الأمر الذي كان في مرمى هدف المحقق الكرباسي، فتابعها في الجزيرة العربية والعراق وشمال أفريقيا والهند و إيران وغيرها، ووجد على سبيل المثال أن الحركة الأدبية في تونس: «قد ازدهرت حيث تأثرت بالحياة الفكرية من خلال الإيجابيات التي قام بها الحكام الحسينيون في الفترة ما بين ١١٢٧ ـ ١٣٠٠ هـ، وكان لهذه الجهود العلمية آثارها في ظهور عدد من الكتاب الذين شغلوا مراكز إدارية هامة اعتمادًا على مستواهم العملي والفكري».

انتعاش أدبي:

وتابع الحركة الأدبية الحسينية في العالمين العربي والإسلامي وتأثير السلطات عليها، ووجد على سبيل المثال أنه: «كان للدول الشيعية الإيرانية منها والهندية تأثير في إثراء الأدب الحسيني، حيث برز في تلك البلاد العديد من الشعراء الذين نظموا باللغة العربية إلى جانب لغاتهم الرسمية والمحلية»، وهذا ما حمل المؤلف على تخصيص باب لكل لغة من اللغات بل ولكل لهجة من اللهجات

التي نظمت الشعر في الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام)، سواء بالشعر العربي القريض أو الدارج.

ومما يلاحظ على هذا القرن هو انتعاش الأدب الحسيني على خلاف القرون الماضية، بل إن هذا القرن يشكل بداية الانطلاقة الشعرية، وأعتقد أن لتطور وسائل الطبع والنسخ الأثر الطيب في حفظ الشعر من الضياع، فضلاً عن نشوء حكومات لا ترتبط بالآستانة كانت تمثل حاضنة للأدب العربي بعامة والحسيني بخاصة، وموطن آمن للأدباء الذين تضيق بهم السبل في مساقط رؤوسهم ومواطن سكناهم الواقعة تحت الحكم العثماني، إذ لم يكن الأدباء يأمنون الشر من السلطات العثمانية إن كان على خلفية قومية أو مذهبية، مثلما حصل مع الأديب العراقي والفقيه السيد نصر الله بن حسين الحائري الذي اغتيل صبرًا في استانبول عام ١١٦٨ هـ، رغم أنه قدم سلطانها محمود بن مصطفى العثماني (ت ١١٦٨ هـ) موفدًا من قبل النجف الأشرف في مهمة لتوحيد الصف الإسلامي، وقد سجل الشيخ عبد الحسين بن أحمد الأميني (ت 1390 هـ) في كتابه *شهداء الفضيلة* ٢٢ إسما أدبيًا وعلميًا من أعلام المسلمين الشيعة اغتيلوا في هذا القرن، منهم الحائري الذي استأثر بأربعة قصائد من مجموع قصائد الجزء الأول من ديوان القرن الثاني عشر الهجري الواقعة بين قافيتي الألف والدال، وجاء في إحداها بعنوان «لا أنساه» من بحر الرمل في ٤٨ بيتًا، ومطلعها:

واغـــريبًا قُطنُهُ شَيبَتُـــهُ إذْ غدا كافورُهُ عَفْرَ الثَّرى

ثم يربط بين سواد الكعبة والحزن على الحسين (عليه السلام) من باب المجاز:

وثيابَ الحزنِ سودًا لبستْ كعبةُ اللّه لهُ طولَ المدى

ويختمها بالصلاة على محمد (صلى اللّه عليه وآله) وآله (صلوات اللّه عليهم أجمعين):

وعليكم صلواتُ اللّه ما لمعَ البرقُ وما الغيثُ همد

القصيدة الخاليّة:

وتنسب إلى «الخال» الذي طالما تغنى به الشعراء لوصف حسن المحبوب وجماله بوصف الخال القمر في تمامه معلق في وجنة السماء يهبها رونقًا وجمالا في عيون الناظرين، حتى وصل الحال بالشاعر أن يماثل بين حبيبه الداكن البشرة بالخال، فينشد من بحر البسيط:

لام العواذل في سوداء فاحمة كأنها في سواد القلب تمثالُ

وهام بالخال أقوام وما علموا إني أهيم بشخص كلّه خالُ

ولكن أن يستعمل لفظ «الخال» في كل بيت من قصيدة طويلة وفي معان عدة، فهذا هو الإبداع الفني بعينه، وهذا ما لمسناه في شاعر القرن الثاني عشر الهجري الأديب والمحقق سليمان بن عبد اللّه الماحوزي البحراني المتوفى سنة ١١٢١ هـ، الذي كتب قصيدته الخاليّة، فانتشرت في الآفاق وراح الشعراء يعارضونها بالسياق نفسه.

جاء في مطلع قصيدة البحراني من بحر الطويل:

علامَ سقى خدّيكَ من جفنك الخالُ أمِـنْ ربواتِ اللَّوْلاح لك الخالُ

وعارضها الشاعر السوري بطرس بن إبراهيم كرامة المتوفى سنة ١٢٦٧ هـ، في قصيدة من بحر الطويل ومطلعها:

أمِنْ خدّها الوردي أومضكَ الخالُ فسحّ من الأجفان مدمعك الخالُ

وحملها والي بغداد داوود باشا المتوفى سنة ١٢٦٧ هـ إلى شعراء بغداد، فعارضها الشاعر عبد الباقي بن سليمان العمري المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ، في قصيدة من بحر الطويل ومطلعها:

إلى الروم أصبو كلما الخالُ فأسكبُ دمعًا دون تسكابه خالُ

ووصلت قصيدة العمري إلى النجف الأشرف، وعارضها الشيخ عبد الحسين بن قاسم الجامعي المتوفى سنة ١٢٧١ هـ، في مدح الشيخ حسن ابن جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ، ومطلعها:

يمين للندى في الجذب خالُ تجودُ حيًا إذا ما ضنَّ خالُ

وعارضها الشيخ موسى بن شريف الجامعي المتوفى سنة ١٢٨١ هـ في مدح الشيخ حسن كاشف الغطاء، ومطلعها:

سقى الخال من نجدٍ وسكّانه الخال وأزهرَ في أكتافه الرفدُ والخالُ

وعارضها شعراء آخرون، كما طارت القصيدة إلى الشام واليمن، على أن القصيدة الخاليّة من حيث النشأة تنسب إلى إمام الكوفة في اللغة والنحو أحمد بن يحيى النحوي المتوفى سنة ٢٩١ هـ، حيث أنشد قصيدة من بحر الطويل ومطلعها:

أتعرفُ أطلالاً شجونك بالخـالِ وعيشُ زمانٍ كان في العصر الخالي

ولاحظ المحقق الكرباسي في القصائد الخاليّة: «أن معظمها

أنشئ من قبل الموالين لأهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم ومن مختلف الأقطار العربية والأصقاع الإسلامية».

هكذا أهل مصر:

وجد المؤلف من خلال استقراء الشعراء وأعدادهم وجنسياتهم، أن: «عدد الشعراء المشاركين ممن وصلتنا أسماؤهم وقصائدهم فهم اثنان وثلاثون شاعرًا أو ما يزيد، ينتمون إلى عدد من الأقطار العربية والإسلامية، ففيهم من الحجاز والبحرين والعراق ومصر وسوريا ولبنان واليمن و إيران، وقد حمل ثقله بالدرجة الأولى شعراء البحرين ثم العراق»، ولم يقتصر النظم الحسيني على شيعة أهل البيت (عليهم السلام): »فقد نظم الشيعي والسُني من غير فرق، لأن الحسين (عليه السلام) سبط الرسول (صلى الله عليه وآله) وريحانته، وأمل الشعوب وقدوة الأحرار»، وقد ضم هذا الجزء ٨٢ قصيدة ومقطوعة.

ومن هؤلاء صاحب منظومة الشبراوي في قواعد فن العربية، الفقيه والمصري عبد الله بن محمد الشبراوي الشافعي المتوفى عام ١١٧٢ هـ، حيث ينشد وهو في المشهد الحسيني بالقاهرة من بحر الخفيف في قصيدة من ٢٥ بيتا بعنوان «فاز من زار حيكم»:

يا نديمي قُم بي إلى الصَّهباء واسقِنيها في الرَّوضة الغنّاء

ثم يضيف:

يا كرام الأنام يا آل طاها حبُّكم مذهبي وعقدُ ولائي

ثم يضيف:

سادتي إنني حُسبتُ عليكم في ابتدائي يا سادتي وانتهائي

ويقول عنه البحاثة الكرباسي الذي يرجع نسب الشاعر إلى والي الإمام علي (عليه السلام) على مصر مالك بن الحارث الأشتر النخعي المتوفى عام ٣٧ هـ، وهو يعلق على هذا البيت: «أراد أنه خلق محبًا ومات محبًا، وهكذا أهل مصر».

دعاء وسلام وصلاة:

وما يلاحظ في معظم القصائد الطوال، أن الشاعر وهو في ساحة أهل البيت (عليهم السلام) بوصفهم الوسيلة وحبل الله، يمهد لختام القصيدة بذكر اسمه ونسبه، داعيًا من الله أن يغفر له ولمن يلوذ به، وينهيها بالسلام على أهل البيت (عليهم السلام) والصلاة على محمّد وآل محمد.

ومن ذلك قصيدة «هم فلك النجاة» من بحر الكامل للشاعر علي بن أحمد الجدحفصي المتوفى حدود عام ١١٨١ هـ، في ٩٤ بيتًا ومطلعها:

لمنِ الطُّلولُ خلتْ بساحةِ ثهمد؟ وعفتْ بها فكأنها لم توجدِ

ثم ينشد:

يرجو عليٌ نجلُ أحمدَ أنه يغدو عليًا في المقام الأوحدِ

ثم يختم:

وعليكم الصلوات والتسليمُ ما أحيا الحيا ميتُ الكلا في معهد

ومن ذلك قصيدة «الجوى زادي» من بحر الهزج للشاعر عبد

الرضا بن أحمد المقرئ المتوفى حدود عام ١١٢٠ هـ، في ٣٧ بيتًا ومطلعها:

أفي عاشورَ أطمعُ بالرُّقادِ ولمْ أكحلْ جفوني بالسُّهاد

ثم يختم:

رِضا ربح الرِّضا فيها ليومٍ ينادي في تغابُنه المنادي

صِلاتُ صَلاةِ ربِّ العرش تترى عليكم ما حدا في الرَّكب حادي

وهنا تضمين ليوم التغابن، وهو يوم القيامة ويوم البعث. والظاهر أن ثلاثية الاستغفار والسلام والصلاة، سمة عامة في قصائد هذا القرن، مما يوحي أن الأمر جرى كعرف بين الشعراء وفي بلدان مختلفة.

رؤية سريانية:

يعد الأب الدكتور سهيل بطرس متى قاشا المولود في بلدة باخديدا في سهل نينوى في العراق عام ١٣٦١ هـ(١٩٤٢/٦/٢٦ م)، والمقيم حاليًا في بيروت، من الشخصيات السريانية المسيحية العراقية، التي كتبت في الأدب والتاريخ والحضارة والتراث، فأنتجت سبعين كتابًا حتى يومنا هذا، فالأب قاشا الذي يرى أن المشهد الشعري السرياني والعربي يلتقيان في التعبير عن الحزن، قرأ الجزء الأول من ديوان القرن الثاني عشر برؤية سريانية، فوجد أن الإمام الحسين (عليه السلام) هو: راية الحق لدحر الباطل، كيف لا وهو ابن الحق، من سلالة الأصفياء، وفي مقدمتهم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله)، الذين أرسوا أسس الحق في أرجاء الأمة كافة

وحماية أبنائها.

فالأب قاشا يتوسم في شخصية الإمام الحسين (عليه السلام): الحكيم، الشجاع، الغيور والسخي والعادل، الذي قدّم نفسه فداءًا عن أمته، ما من حب أعظم من هذا أن يبذل الإنسان نفسه فداءًا عن أحبته، فوطأ الموت وصار فجرًا للحياة. وما ذلك إلا لأن الإمام الحسين (عليه السلام): عاش الإسلام بضميره ووجدانه.. وكانت واقعة كربلاء المنتصرة رغم الشهادة.

والأب قاشا الأديب والباحث والمؤرخ، يعتقد أن الموسوعة الحسينية التي صدر منها أكثر من خمسين مجلدًا: بأسلوبها السهل الممتنع تشرح سيرة مغوار العرب والإسلام، وما أحوجنا إلى مثل هذه الموسوعات التي تفك مغاليق الأحداث وتضع الحلول للعديد من الألغاز والطلاسم في سيرة مشاهير الأمة وقادتها، وعلى رأسهم الإمام الحسين أبو عبد الله المثال الأعلى والقدوة الفاضلة لشباب الأمة وشيبها.

في الحقيقة إن هذا الديوان ـ كما يؤكد الأب سهيل قاشا ـ يمثل سفرًا للعديد من الشعراء الذين آمنوا بالقضية، فنظموا قلائدهم بحق الإمام الحسين، وهم يأملون أن يضعوها قلائدًا في جيده الشريفة إن لم يستطيعوا أن يضفروها أكاليل وتيجانًا من النرجس والزنبق، وعليه نثمن هذا السفر الجليل، ونتمنى أن يُقرأ بإمعان المحقق وصدق المدقق، فينال الشكر والثناء لليد التي سطرته وأبرزته.

في رحاب أدعية

الإمام الحسين (ع)

لقد تميّز تراث أهل البيت (عليهم السلام) بظاهرة الدعاء تميّزًا فريدًا في جانبي الكمّ والكيف معًا.

فالاهتمام بالدعاء في جميع الحالات والظروف التي يمرّ بها الإنسان في الحياة كما قال تعالى: «قل ما يعبؤُاْ بكم ربّي لولا دعاؤكم»[1] هو المظهر الذي ميّز سلوك أهل البيت عمّن سواهم، وعلى ذلك ساروا في تربيتهم.

والمسلمون بشكل عام يلمسون هذه الظاهرة بوضوح في موسم الحج وغيره من مواسم العبادة عند أتباع أهل البيت(عليهم السلام).

وتفرّدت أدعية أهل البيت(عليهم السلام) في المحتوى والمقاصد والمعاني التي اشتملت عليها أدعيتهم; فإنّها تُفصح بوضوح عن البون الشاسع بينهم وبين غيرهم .

وتدلّنا بعض النصوص المأثورة عن الإمام الحسين (عليه السلام) على سر هذا الاهتمام البليغ منهم بالدعاء.

١ ـ قال (عليه السلام) : أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام[2] .

٢ ـ وجاء عنه أنه كان يدعو في قنوت الوتر بالدعاء الذي علّمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو: «اللهم إنك تَرى ولا تُرى وأنت

---

(١)الفرقان (٢٥): ٧٧.

(٢)بحار الأنوار: ٩٣ / ٢٩٤ .

بالمنظر الأعلى و إنّ اليك الرجعى و إنّ لك الآخرة والأُولى، اللهم إنّا نعوذ بك من أن نَذِلّ ونُخزى»[1] .

٣ ـ من الأدعية القصيرة المأثورة عنه قوله (عليه السلام) : «اللهم لا تستدرِجني بالإحسانِ ولا تؤدِّبني بالبلاء»[2] .

وقال ـ في معنى الاستدراج : الاستدراج من الله لعبده أن يُسبغ عليه النِعَمَ ويَسْلُبَه الشُكرَ[3] .

٤ ـ ومن أدعيته ـ في قنوته : «اللهمّ مَن آوى إلى مأوى فأنتَ مأوايَ، ومن لجأ إلى مَلجَأ فأنتَ مَلجأي اللهم صلّ على محمّد وآلِ محمّد واسمع ندائي وأجب دُعائي واجعل مآبي عندك ومثوايَ، واحرُسني ـ في بَلواي من افتتانِ الامتحان ولُثَةِ الشيطانِ بعظمتك التي لا يشوبُها وَلَعُ نفس بِتَفتين، ولا واردُ طيف بتظنين، ولا يلُمُّ بها فَرَجٌ حتى تقلبني اليك بإرادتك غير ظنين ولا مظنون ولا مُراب ولا مُرتاب، إنّك أنت أرحمُ الراحِمينَ»[4] .

٥ ـ وله دعاء آخر كان يدعو به ـ في قنوته هو: «اللهم منك البدءُ ولك المشيئةُ ولك الحولُ ولك القوّةُ، وأنت اللّهُ الذي لا إله إلاّ أنتَ جَعَلْتَ قلوبَ أوليائك مسكنًا لمَشِيّتِكَ ومكمَنًا لإرادتكَ، وجَعَلتَ عُقولَهُم مَناصِبَ أوامِركَ ونواهيكَ فأنتَ إذا شِئت ما نشاءُ حرّكتَ مِن أسرارهم كوامِن ما أبطَنْتَ فيهم، وأبَدأتَ من إرادتك على ألسنتِهِم ما أفهَمْتَهُم به عنكَ ـ في عقودِهم بعقول تدعوك وتدعو إليك

---

(١) كنز العمال : ٨ / ٨٢، ومسند الإمام أحمد : ١ / ٢٠١.

(٢) بحار الأنوار : ٧٨ / ١٢٨ .

(٣) تحف العقول : ١٧٥ .

(٤) نهج الدعوات : ٤٩ .

بحقائقِ ما مَنَحتَهُم به، و إنّي لأعلَمُ ممّا علّمتني ممّا أنت المشكورُ على ما منه أريتني و إليه آوَيتني».

٦ ـ وله دعاء كان يدعو به حين كان يمسك الركن اليماني ويناجي ربّه هو: إلهي أنعمتني فلم تجدني شاكرًا وأبليتني فلم تجدني صابرًا، فلا أنت سلَبْتَ النعمة بترك الشكر، ولا أدَمْتَ الشدّةَ بترك الصبرِ إلهي ما يكونُ من الكريم إلاّ الكرَمُ [١].

٧ ـ وروي أن شريحًا دخل مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) فوجد الحسين (عليه السلام) في المسجد ساجدًا يعفِّر خدّه على التراب وهو يقول: «سيّدي ومولاي أَلِمقامِعِ الحديد خَلَقْتَ أعضائي؟ أم لِشُربِ الحميمِ خَلَقْتَ أمعائي؟ إلهي لئن طالبتني بذنوبي لأُطالبنّك بكرمك، ولئن حَبَستني مع الخاطئينَ لأخبِرنَّهُم بحُبّي لك، سيّدي! إنّ طاعَتي لا تنفعُك، وَمعصيتي لا تضرّك، فهب لي ما لا ينفعُك واغفر لي ما لا يضرّك فإنك أرحم الراحمين» [٢].

٨ ـ وكان من دعائه إذا دخل المقابِرَ: «اللّهم ربَّ هذه الأرواح الفانيةِ والأجساد البالية، والعِظامِ النَخِرةِ التي خرجتْ من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخِل عليهم رَوْحًا منك وسلامًا مِنّي»، وقال (عليه السلام): إذا دعا أحد بهذا الدعاء كتب الله له بعدد الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعةُ حسنات [٣].

١٠ ـ ومن دعائه في الصباح والمساء قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومن الله و إلى الله و في سبيل الله وعلى ملّة

---

(١) إحقاق الحق: ١١ / ٥٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١١ / ٤٢٤.

(٣) مستدرك الوسائل: ٢ / ٣٧٣ الحديث ٢٣٢٣.

رسول الله وتوكّلت على الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم. اللهم إني أسلمْتُ نفسي إليك ووجّهت وجهي إليك وفوّضت أمري اليك، إياك أسألُ العافية من كل سوء في الدنيا والآخرة، اللهم إنك تكفيني من كلّ أحد ولا يكفيني أحد منك فاكفني من كلّ أحد ما أخاف وأحذرُ، واجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا إنك تعلمُ ولا أعلم وتقدرُ، ولا أقدِر، وأنت على كل شيء قدير برحمتك يا أرحم الراحمين»[1].

وأمّا دعاء عرفة المرويّ عن الإمام الحسين (عليه السلام) فهو من غرر الأدعية المطوّلة والتي تستدرّ الرحمة الإلهية بما تمليه على الإنسان من أسباب الإنابة والتوبة وشموخ المعرفة.

و إليك مقطعًا من هذا الدعاء:

«الحمدلله الّذي لم يتّخذ ولدًا فيكون موروثًا، ولم يكن له شريك في الملك فيضادّه فيما ابتدع، ولا وليّ من الذلّ فيرفده فيما صنع، سبحانه سبحانه سبحانه لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا وتفطرتا، فسبحان الله الواحد الحقّ الأحد الصمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الحمدلله حمدًا يعدل حمد ملائكته المقرّبين، وأنبيائه المرسلين، وصلّى الله على خيرته من خلقه محمّد خاتم النبيّين وآله الطّاهرين المخلصين، اللّهمَّ اجعلني أخشاك كأني أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حتّى لا أُحبّ تعجيل ما أخّرت، ولا تأخير ما عجّلت»[2].

---

(١)مهج الدعوات: ١٥٧ ....

(٢)بحار الأنوار: ٩٨ / ٢١٨ ـ ٢١٩.

في رحاب أدب الإمام الحسين

لا ريب في أن الإمام الحسين(عليه السلام) يعدّ امتدادًا لجدّه وأبيه وأخيه من حيث المعرفة ومن حيث الاقتدار الفني في التعبير.

وقد جاء على لسان خصومهم «أنهم أهل بيت قد زقّوا العلم زَقًّا»، و«أنها ألسِنَةُ بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من البحر»[1].

وعلّق عمر بن سعد يوم عاشوراء على خطبة للإمام الحسين (عليه السلام): «إنّه ابن أبيه، ولو وقف فيكم هكذا يومًا جديدًا، لما انقطع ولما حُصِر»[2].

وقال أصحاب المقاتل عن كلماته وخطبه في كربلاء ويوم عاشوراء أنه لم يُسمع متكلّم قطّ قبله ولا بعده أبلغ في منطقه من الحسين(عليه السلام)[3].

وبالرغم من قصر المدّة الزمنيّة لإمامته وعدم إتاحة الفرصة السياسيّة التي تفرض صياغة الخطب عادةً بخاصّة أنّه (عليه السلام) التزم بالهدنة التي عقدها أخوه(عليه السلام) في زمن معاوية، فقد أُثر عنه في ميدان الخطبة وغيرها أكثر من نموذج فضلاً عن أنه في زمن أبيه (عليه السلام) قد ساهم في خطب

---

(١)المجالس السنية : ٢١، ٢٨، ٣٠ .

(٢)المجالس السنية: ٢١، ٢٨، ٣٠ .

(٣) المجالس السنية: ٢١، ٢٨، ٣٠ .

المشاورة والحرب، وحشَد فيها كل السمات الفنّية التي تتناسب والغرض الذي استهدف توصيله إلى الجمهور[1].

وأمّا خطب المعركة التي خاضها في الطف أو كربلاء، حيث فجّرت هذه المناسبة عشرات الخطب منذ بدايتها إلى نهايتها، فقد تنوّعت صياغةً ومضمونًا، وتضمّنت التذكير بكتبهم التي أرسلوها إليه وبطاعة الله وبنصرته وبالتخليّ عن قتاله. وممّا جاء في أحدها: «تبـًّا لكم أيّتها الجماعة وتَرَحًا، أحين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجِفين (مؤدّين مستعدّين) سَلَلْتُم علينا سيفًا لنا في أيمانِكم وحششتُم علينا نارًا قدحناها على عدوّكم وعدوّنا فأصبحتم إلبًّا على أوليائكم ويدًا عليهم لأعدائكم بغيرِ عدل أفشوه فيكُم ولا أمل أصبح لكم فيهم إلاّ الحرام من الدنيا أنالوكم وخسيس عيش طمعتم فيه ...».

واحتشدت هذه الخطبة بعناصر الفن المتنوعة بالإضافة إلى عنصرَي المحاكمة والعاطفة. وبمقدور المتذوّق الفني الصرف أن يلحظ ما تتضمّنه من دهشة فنّية مثيرة كل الإثارة[2].

والأشكال الأدبيّة الأُخرى التي طرقها أدب الإمام الحسين (عليه السلام) هي الرسائل والخواطر والمقالة والأدعية والشعر[3]. والحديث الفني.

---

(١) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٣٠٧ ـ ٣١١.

(٢) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: ٣١١ ـ ٣٠٣.

(٣) للاطلاع التفصيلي على خصائص كل شكل في أدب الحسين (عليه السلام) راجع تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي للدكتور محمود البستاني.

ونشير إلى نموذجين من شعره بما يتناسب مع المجال هنا:

١.

تبارك ذو العلا والكبريـــاءِ تفـــرّد بالجـــلالِ وبالبقـــاءِ
وسوّى الموت بين الخلق طُرًّا وكلّهُـــم رهـائنُ للفنـــــاء
ودنيانا ـ و إن مـــــلنا إليـــهـا وطالَ بها المتاعُ ـ إلى انقضاء
ألا إن الركونَ على غـــرور إلى دار الفنـــاءِ من الفناءِ
وقاطنها سريعُ الظعنِ عنها و إن كان الحريصُ على الثَواءِ [1]

٢.

اغنَ عن المخلوق بالخالـــقِ تَغنَ عن الكاذبِ والصادقِ
واسترزق الرحمن من فضله فليـــس غير الله من رازقِ
من ظنّ أن النـــاس يغنونـــه فليس بالـــرحمن بالواثـــق
أو ظن أن المال من كسبه زلّت به النعلان من حالق [2]

(١)عن ديوان الإمام الحسين : ٤ / ١١٥ .

(٢) عن البداية والنهاية : ٨ / ٢٢٨.

المسرح الحسيني

خلا الأدب العربي القديم من المسرح، الذي ظل غائبًا حتى منتصف القرن التاسع عشر. عندما قام مارون النقاش (١٨١٧-١٨٥٥) بترجمة بعض المسرحيات الأجنبية وتمثيلها في بيروت. ورغم الانطلاقة النهضوية، ما زال المسرح العربي يتعثر، وما زال متخلفًا: تأليفًا وتمثيلاً حتى يومنا هذا. أما بذرة المسرح العربي فغرستها مأساة الحسين منذ أن بدأت زينب مع نساء الوحي يروين قصة استشهاد الإمام الحسين وأصحابه، مرددين أقوالهم، مشيرين إلى حركاتهم. بيد أن الاضطهاد منع ذلك حتى تسلط البويهيون في القرن الرابع الهجري.

روى الذهبي قال: إن أول مأتم حسيني أقيم في بغداد كان في محرم سنة ٣٥٢هـ/٨٦٦م. حيث ألزم معز الدولة البويهي، الناس بغلق الأسواق، ومنع الهراسين والطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منشورات الشعور

مضمخات يلطمن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين عليه السلام» وتطور المأتم والمسيرات إلى مسرح يقام في ساحة بغداد العامة، يعرض قصة الاستشهاد، ويحضره رجال الدولة وعامة الشعب. حتى قيل: أن أول مسرح عربي تمثيلي هو المسرح الحسيني في العهد البويهي، لكن العوائق منعته من الاستمرار والتطور، ويصعب رصدها جميعًا:

أولها: اضطهاد الحكام بعد البويهيين لذكرى الحسين، فذكراه كانت ترجفهم، وتخيفهم ما دام شعارها، الإصلاح في الإسلام والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. لقد خنق الظالمون هذه الظاهرة، فكان المسلمون في العهود العباسية والتركية يقيمون عاشوراء في السراديب، ويأمرون النساء أن يدرن الرحى حتى يغلب ضجيجها على ضجيجهم.

ثانيًا: حرم فقهاء الشيعة تمثيل شخصية الإمام الحسين، إذ لا يصح أن يتزيا بزيه أحد.

ثالثًا: إن المسرح الحسيني أحياه البويهيون الفرس الذين عرفوا المسرح منذ القديم. ولما انقرضت دولتهم، تلاشى المسرح لأن غيرهم لم يتحمس لهذا الفن. عاد المسرح الكربلائي إلى الحضور مع الصفويين، واتخذ مع الشاه عباس منحنى جديدًا ومن إصفهان رجع إلى منطلقه الأول إلى كربلاء، مترقيًا له خصائصه ومميزاته، رجع مع إيراني أيضًا هو محمد علي التبريزي، الذي تحدى سلطة الحكومة التركية، وأحيى ذكرى عاشوراء في باحة الحرم الحسيني، إحياءً مزج التشخيص بالواقع مدة عشرين سنة.

كتبت جريدة Le Temp الفرنسية سنة ١٩٠٧ مقالاً عنوانه:

«آلام وعذابات الحسين في كربلاء» وصفت فيه عرضًا مسرحيًا مأساويا مذهلاً، في كربلاء بقيادة التبريزي. ومما قالته: ((ان المناظر يذوب لها الفؤاد حزنًا وكآبة، فالشهداء موضوع الاحتفال آلو أن يضحوا بأنفسهم تبركًا وتيمنًا بالإمام الحسين،مما يحمل بعض الحاضرين على التدخل لمنعهم من تنفيذ وعودهم، وكثيرون منهم يموتون فدى لسيدهم. وأبطال هذا المسرح رجال حلقوا وسط رؤوسهم من الجبهة إلى القفا. ويرتدون أثوابًا بيضاء، ويحملون في يوم عاشوراء. و إلى جانب الرجالة يشارك الفرسان بأثوابهم البيضاء الملائكية.

يصطف المستشهدون على هيئة نصف دائرة ووسط الأدعية والاناشيد الدينية. ويسقط الرجال صرعى وماهم بصرعى، وقد يسقط أحد المستشهدين لكثرة الجروح..

وبعد أن يسقط الرجال تعبًا أو تمثيلاً يرقص الفرسان فرحًا بالنصر ويزحفون إلى خيم مضروبة في أقصى المكان.

فيقومون بعملية السلب والنهب، وحرق الخيم، وتستغرق عملية التمثيل خمس ساعات».

هذا النوع من المسرح انتقل إلى النبطية في جنوب لبنان، ومازال ميدانًا تجري وقائعه، لاعلى خشبة المسرح، إنما في ساحة تتسع لضرب الخيام، وجري الخيل، وعمليات الكر والفر. وتظل الحركات المسرحية ثمرة من بستان المنبر الحسيني الذي أنبت أشجار الثقافة في صحراء كربلاء، وظل يرويها بدماء الحسين.

الدعوة الإسلامية إلى توطيد دعائم الأمن والسلم في العالم

لقد أساء كثير من الناس فهم رسالة الإسلام ذات النزعة العالمية وأشاعوا كلمات، وقرروا أفكارًا عائمة، وأعلنوا شعارات مغرضة، منها أن الإسلام انتشر بحد السيف، ولايعترف بحرية الاعتقاد والفكر والانتماء الإقليمي وأن الجهاد في الإسلام وسيلة لقهر الشعوب والأمم الأخرى، وأنه عدوان مستمر ودائم، وأن علاقات المسلمين بغيرهم هي علاقة متوترة وعدائية وفوقية وتسلطية.

وهذا كله إما جهل بحقيقة دعوة الإسلام السلمية، أو تشويه مغرض نابع من نار التعصب والحقد والكراهية على المسلمين، أو تفسير مغلوط لحقائق التاريخ، أو تأويل سطحي لبعض النصوص التشريعية وعبارات بعض الفقهاء الرامية إلى الحفاظ على قوة المسلمين وتأكيد هيبتهم، وضرورة صمودهم واستماتتهم في قهر العدو الذي بدأ العدوان، واخترق حرمات المسلمين وديارهم وأوطانهم، واغتصب بعض أجزاء بلادهم، وقاوم بشدة وظلم وتحدّ كل مقومات الحرية الطبيعية في اختيار العقيدة الصالحة والدين الأقوم.

والواقع أن الإسلام في جوهره ووسائله وغاياته أشدّ الأديان حرصًا على إقرار الأمن والسلم في العالم، سواء في أوطانه، أو في أوطان الآخرين، لايختلف اتجاهه في التاريخ بدءًا من بزوغ فجر

دعوته، ومرورًا بسياسة دوله وحكّامه وعلى مر العصور، وانتهاءً بتحقيق الغاية الأساسية له، وهي: تحقيق الاستقرار والاطمئنان في العالم، وتوطيد دعائم السلم في كل وقت، واحترام أصول الحرية والعدالة والمساواة في كل مكان وزمان، ومع كل شعوب العالم.

ومنشأ التشويه والخطأ في فهم رسالة الإسلام السلمية أن المسلمين في كل العصور، وفي الماضي والحاضر والمستقبل كانوا ومازالوا هم المعتدى عليهم والمهددة مصالحهم، والمتآمر على وجودهم وكيانهم، ومحاولة القضاء على وطنهم ودعوتهم، واستلاب خيراتهم ومحاولة تركيعهم لنفوذ وهيمنة غيرهم من أولئك الذين ينتمون إلى الثالوث المدمر ألا وهو: الشرك أو الوثنية، واليهودية أو الصهيونية الغادرة، والصليبية الحاقدة.

لقد خاض النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ثلاث عشرة سنة بل قرابة خمس عشرة سنة بعد إعلان نبوته ونشر دعوته سبعًا وعشرين معركة مع العرب وغيرهم ممن جاورهم في شبه جزيرة العرب من الفرس والرومان كان المشركون واليهود والصليبيون هم البادئين بالعدوان على المسلمين، ولم يشرع القتال في القرآن الكريم إلا بعد أن استفحل عدوان هؤلاء، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩/٢٢).

واستمر الأعداء في الحقب التاريخية، بعد الهجرة إلى المدينة المنورة سنة (١٣هـ)، في عدوانهم وممارسة اعتداءاتهم على البلاد والأشخاص، مما استدعى المسلمين أن يزأروا، ويردوا العدوان، ويقمعوا عدوان المعتدين، ويمارسوا حق الدفاع الطبيعي عن وجودهم

وكرامتهم وعزتهم، أو يقوموا بمقتضى الخطة الاستراتيجية الطبيعية في فتح بلاد، أو ابتداء معارك في أجزاء من البلاد الخاضعة لنفوذ الرومان في الوسط والغرب كما في مصر وتركيا وشمال بلاد المغرب العربي، أو لنفوذ الفرس في الشرق في العراق وبلاد فارس، وفي غير هذه المناطق كإندونيسيا وماليزيا وبلاد جنوب شرق آسيا، بل وفي الهند، وفي القارة الإفريقية والعالم برمته، انتشر الإسلام ودعوته بالسلم والإقناع والدعوة الهادئة العقلية والحوار البناء.

إن دعوة الإسلام إلى الأمن والسلم الدوليين، والأمن الداخلي بين أبناء المجتمع في مطالبة تعددية مذهبية ودينية وطائفية هي من جوهر رسالة الإسلام وغايته الأساسية، لأن الإسلام دين العقل والفكر، وأبسط المبادئ العقلية أن ما فرض بالقوة أو أكره عليه ولاسيما العقيدة، سرعان ما يزول بزوال ظرف الإكراه أو القوة، وقد صرح القرآن الكريم بمنع الإكراه في الدين، أو إقرار الحرية الدينية، فقال الله تعالى: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢/٢٥٦). وهذا دليل قاطع على أن المسلمين لم يكرهوا ولن يكرهوا أحدًا على الدخول في الإسلام، وقد دلت وقائع التاريخ على هذا، فلم يثبت في أي حقبة زمنية في الماضي السحيق أن المسلمين أكرهوا أحدًا على الإسلام، وتثبت هذه الحقيقة الأولى وهي: أن الإسلام لم ينتشر بالسيف.

والحقيقة الثانية: أن الإسلام حريص كل الحرص من أجل ضمان حرية انتشاره في العالم على إشاعة السلام والاستقرار، ومحاربة الإرهاب، إلا إذا توافرت حالة الحرب، أو اعتدي على بلاد

المسلمين، ودعاة الإسلام يدعون إلى إعلاء كلمة الله وهي كلمة الحق والتوحيد والعدل والفضيلة، وإعلان حق المساواة أمام الله والعبودية (الطاعة التامة) له تعالى.

وأول دلالة على هذا أن المسلمين في صدر الإسلام صبروا على أذى المشركين الوثنيين ومن وراءهم من الحاقدين فترة تقارب ١٥ سنة، دون إذن بردّ الاعتداء، ومع الإصرار على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن﴾ (النحل: ١٢٥/١٦)، وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤/١٥)، وقوله سبحانه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣/٥)، وقوله عز وجل: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٩/٤٣)، وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥/١٥).

وفيما بعد مرحلة الإذن بالقتال وتقرير مشروعيته، أمر الله تعالى المسلمين بأن يؤثروا السلام والتفاهم والحوار وحل المشكلات بالصلح والمعاهدة، فقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (النساء: ٩٤/٤)، ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ﴾ (البقرة: ٢٠٨/٢)، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ (الأنفال: ٦١/٨).

وكانت تحية الإسلام على الدوام: السلام عليكم، والجنة: دار السلام، ﴿وَاللهُ يدعُو إلى دارِ السَّلامِ﴾ (يونس: ٢٥/١٠).

ولكن من العبث والهزء أن يدعو المسلمون غيرهم في أثناء

نشوب المعارك إلى قبول السلام، وعلائم النصر وهزيمة الأعداء المعتدين ظاهرة للعيان، لذا قال تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ (محمد: ٣٥/٤٧).

و إذا قبل الأعداء قبل البدء في القتال الاحتكام إلى السلام والصلح والتفاهم والمعاهدة الموطدة لدعائم السلام، فإن المسلمين على الفور يستجيبون لنداء السلام الآمن المستقر غير القائم على المكر والخداع، ونية العودة إلى القتال، والاستعداد للمعارك في المستقبل، فمن الخطأ الفادح وصف المسلمين أنهم متعطشون لإراقة الدماء، فهذا صنيع أو شيمة من لايخشى الله، ولايعتقد بأن البشرية كلها عباد الله، وصبغته وصنعه: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨/٢).

ويصرح النبي لأمته بقوله - في الصحيحين عن أبي هريرة: «لاتتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا».

وبناء عليه، تكون الحقيقة الثالثة وهي أن الأصل (القاعدة أو المبدأ العام) في العلاقات الخارجية أو الدولية بين المسلمين وغيرهم هو السلام، والحرب استثناء أو ضرورة طارئة، وهذا مقرر لدى مختلف الفقهاء من المذاهب: أهل السنة وغيرهم، بدءًا من أواخر القرن الهجري الأول والقرن الثاني: عصر الاجتهاد الفقهي.

لكن إذا اغتصب الأعداء أرضًا إسلامية، أو تآمر غير المسلمين الخاضعين لمظلة الدولة الإسلامية على إحداث الفتن الداخلية أو محاولة الانفصال والانشقاق، فلايصح للمسلمين اللجوء إلى المسالمة، بل لابد من استرداد الحق بالقوة، والحفاظ على وحدة

البلاد ووحدة الأمة من المسلمين وغير المسلمين، لأن القبول بالغضب ذلة ومهانة، والرضوخ لأراجيف الأعداء ومؤامراتهم وتحركاتهم المشبوهة لون من الهزيمة والضعف أو الاستضعاف، وهذا مناف لمبدأ الكرامة الإنسانية، وعزة النفس، وصون الحقوق والمكاسب، وحينئذ ينقض عهد المعاهدين، ويحتكم إلى السلاح بإشراف الدولة، لا بالمجازر الدموية الشخصية أو الفئوية أو الطائفية، فهذا وهو إدارة الحروب و إعلانها، و إنهاء المعاهدة، وترتيب استراتيجية الدفاع، منوط بإرادة الحاكم أو الدولة، وليس للأفراد بل ولا يحق لهم شرعًا اللجوء إلى الفتن الداخلية والاقتتال المحلي، لما فيه من فوضى، وهمجية، وتخريب وتدمير، وقتل بغير حق، وارتكاب الظلم، و إلحاق الأذى بالناس من غير زاجر ولا رادع ولانظام، فالنظام والتزامه أساس لإقرار الحريات والحقوق واحترام العدل، ومنع الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ﴾ (النحل: ٩٠/١٦)، وقال سبحانه: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨/٥)، أي لايحملنَّكم بغض قوم على ترك العدل معهم.

ونبذ العهد، أي نقضه مشروط بظهور أمارات الخيانة من الأعداء، لقوله تعالى: ﴿وَإِمّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ (المائدة: ٥٨/٨) أي أعلمهم بانتهاء المعاهدة، حتى يكونوا أنتم وهم متساويين في العلم بنقض العهد، و إنهاء السلام، والاحتكام إلى القتال، وهذه حالة طارئة لاتعكر ضرورة العودة، إلى مائدة المفاوضات، و إيثار السلام على الحرب، ففي

السلام صون الدماء، والحفاظ على حق الحياة للمسلم وغير المسلم مطلب ضروري ومقصد مهم جدًا من مقاصد الشريعة ومن أصولها وقواعدها الكبرى.

والحقيقة الرابعة: أن الإسلام دعوة الحق والخير والتوحيد والعدل والإحسان والفضيلة هو: دعوة ذات نزعة عالمية، يود الانتشار في العالم، من أجل خير البشرية نفسها، ومن أجل إنقاذ الشعوب والأمم من حمأة الفوضى والكفر، والضلال والانحراف، وليس هو ذا نزعة عنصرية أو إقليمية، أو استعمارية لسلب خيرات الأمم، قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ((إن الله بعث محمدًا بالحق هاديًا، ولم يبعثه جابيًا)). ولكن الرغبة في الامتداد العالمي لاتعني مطلقًا فرض نظامه بالقوة أو القهر أو الإكراه، وإنما بالاقتناع الذاتي، والقبول المنطقي، والرضا بقواعد الإسلام ومبادئه الإنسانية. العظمة في الحرية والمساواة، وإشاعة الحب والود، ونشر ألوية السلام في العالم، كما جاء في آية قرآنية كريمة: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٣/١٠٤).

والرغبة في نشر الإسلام ليس كنظام العولمة المعاصرة: الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة على الاستكبار وإنكار وجود الآخرين، وإلحاق الجور والظلم بالضعفاء والمستضعفين، وإنما هي عرض مضامين الوحي الإلهي المتمثل بالقرآن والسنة النبوية، بالأسلوب الحسن والحوار البنّاء، والجدل بالتي هي أحسن، لقوله تعالى: ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

(العنكبوت: ٤٦/٢٩) فمن شاء آمن ومن شاء كفر وبقي على دينه وتقاليده ومعتقداته، فلايمس ولا يلحق به أدنى جور أو ظلم.

والحقيقة الخامسة: أن الباعث على قتال الأعداء ليس هو بسبب مخالفتهم للإسلام في العقيدة أو الكفر، و إنما بسبب محاربتهم المسلمين، واعتدائهم المستمر على حرمات الإسلام وديار المسلمين، فلايباح قتل إنسان لمجرد مخالفتهم للإسلام، و إنما يقتل بسبب اعتدائه أو عدوانه أو تحديه أو تآمره على المسلمين، كتآمر جيوش الصليبيين على المسلمين ومحاولة استئصال الوجود الإسلامي في القرن السادس الهجري أو الثاني عشر الميلادي، وكذلك حروب التتار والمغول ووحشية أهلها الضارية و إسقاط الخلافة الإسلامية في بغداد عام ٦٥٦هـ، ومثل مجازر الصهاينة في فلسطين العربية المسلمة في النصف الثاني من القرن العشرين وعلى مدى ٥٣سنة و إلى الآن، وحروب الهنود ضد المسلمين في كشمير وبنغلاديش والباكستان، ومحاولة تفتيت الأعداء وحدة بلاد أو جزر إندونيسيا من طريق التنصير وتأليب غير المسلمين على المسلمين، ومحاولة الانفصال كما حدث في ولاية تيمور الشرقية ، وكما حصل في البوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا وأرتيريا.

وليس أدل على هذا الاتجاه الفقهي لدى أغلبية الفقهاء المسلمين في تقرير هذه الحقيقة من احترام مبدأ التعايش الديني بين المسلمين وغيرهم في مظلة دولة واحدة، وتحريم الاعتداء على المدنيين من نساء وأطفال ورهبان وفلاحين، ومنع كل مايدمر مظاهر الحضارة والمدنية من تهديم المنازل، وقطع الأشجار، ومصادرة أراضي

المسلمين ظلمًا وبهتانًا، وتشريد السكان كالحاصل الآن في فلسطين المحتلة.

والحقيقة السادسة: أن التوصل إلى السلام مع المسلمين يكون إما بالدخول في الإسلام، و إما بتنظيم أصول السلام العادل بمعاهدة كمعاهدة الانضمام إلى الدولة الإسلامية تحت مظلة (عقد الذمة) أي الضمان والعهد والأمان، ومعاهدة الصلح المؤقت (الهدنة) أي الصلح المتجدد لمدة طويلة كعشر سنوات فأكثر مثل صلح الحديبية، و إما بالوقوف على الحياد، كحالة أثيوبيا (الحبشة) في العهد النبوي، وحالة بلاد النوبة (السودان بالمعنى الواسع) في عهد حاكم أو والي مصر عمرو بن العاص، وحالة قبرص في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عام (٢٨هـ/٦٤٨م).

ويحترم المسلمون أشد احترام بنود المعاهدات مع الأعداء إلى أن ينقضوها، أو يحاربوا المسلمين، أو يناصروا دولة معادية للإسلام. ولانجد كالإسلام نظامًا يقدس المعاهدات، للوصايا القرآنية المتكررة في هذا الشأن مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ﴾ (النحل: ٩١/١٦)، وقال تعالى واصفًا المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ﴾ (الرعد: ٢٠/١٣)، وأشد من هذا تقديم الوفاء بالعهد على مناصرة فئة إسلامية تعرضت لعدوان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ﴾ (الأنفال: ٧٢/٨). ويؤكد النبي هذا الحكم القاطع بقوله محذرًا من نقض العهد أو الغدر فيما يرويه الترمذي والبيهقي وغيرهما: «لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع

له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة». وأقر النبي بعد بعثته ما تحالف عليه أهل الجاهلية العربية في حلف الفضول الإنساني لنصرة المظلوم، وحماية زائري مكة المكرمة وحجاج البيت الحرام، فقال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدْعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعي به في الإسلام لأحببت»[1].

وعلى الصعيد الداخلي أبرم النبي مع طوائف المدينة المنورة بعد الهجرة ميثاق الصحيفة لتحقيق الأمن والاستقرار والتعايش الديني، ومما جاء في نص هذه المعاهدة الرائعة: «وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم...»[2].

وحينئذ لايحل شرعًا الإخلال بمقتضى العهد أو إيذاء معاهد، أو إلحاق الظلم به، لقوله فيما يرويه أبو داود والبيهقي: «ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».

وليس المعاهدون الذميون مواطنين أو رعايا من الدرجة الثانية كما يزعم بعض المستشرقين، وإنما هم في الحقوق والواجبات التي تقتضيها المواطنة سواء مع المسلمين.

والحقيقة السابعة: أن مشروعية الجهاد في الإسلام ليست كما قد يتوهم الأعداء قائمة على الحروب الدائمة أو الهجوم الظالم، وإنما

---

(١) سيرة ابن هشام ١٣٤/١، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٩١/٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٥٠٣/١، الأموال لأبي عبيدة ص٢٠٤.

هي مقيدة بوجود مقتضيات القتال ومسوغاته (أو مبرراته) من عدوان، ونقض عهد، وإيذاء الدعاة المسلمين أو قتلهم، ونصر المستضعفين، وتكاد تكون حالات مشروعية الجهاد محصورة في حالات الدفاع الوقائي وهي أربع:

١- كفالة حرية العقيدة ومنع الفتنة في الدين.

٢- مناصرة المظلوم فردًا كان أو جماعة.

٣- الدفاع عن النفس والبلاد.

٤- استرداد الأجزاء أو الديار المغتصبة كفلسطين، حيث لايجوز شرعًا أو مصلحة إقرار العدو المغتصب، طال الزمن أو قصر.

وتكاد تكون هذه الحالات داخلة في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠/٢) ...

وأما الآيات العامة المطلقة الأخرى الواردة في شأن القتال من غير تقييد بوجود مقتضيات الجهاد أو قتال من قاتلنا، فهي محمولة على مضمون الآية السابقة التي تقرر أن القتال لمن قاتلنا، فقوله تعالى مثلاً: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ...﴾ (البقرة: ١٩١/٢) واردة في تعقب فلول الأعداء، ومطاردة سراياهم، وملاحقة جيوشهم بعد نشوب المعركة، وآية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: ٣٦/٩) واضح أنها تقرير لحال المعاملة بالمثل.

وهكذا كما يقول علماء أصول الفقه: يحمل المطلق على المقيد، أي إن الآيات المطلقة عن قيد وجود مقاتلة الأعداء لنا، يراد بها ما هو مقرر في آية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا

تَعْتَدُوا إِنَّ اللهِ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠/٢).

وخير مايعبر عن اتجاه جمهور الفقهاء في تبيان مسوغات الجهاد هو العلامة ابن الصلاح في فتاويه حيث قال: إن الأصل هو إبقاء الكفار وتقريرهم، لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق، ولا خلقهم ليقتلوا، وإنما أبيح قتلهم لعارض ضرر وجد منهم، لأن ذلك جزاء على كفرهم، فإن دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة، فإن دخلوا في الذمة (الأمان والعهد والضمان) والتزموا أحكامنا، انتفعنا بهم في المعاش في الدنيا وعمارتها، فلم يبق لنا أرب في قتلهم، وحسابهم على الله تعالى، ولأنهم إذا مكنوا من المقام في دار الإسلام، وبما شاهدوا بدائع صنع الله في فطرته ووداائع حكمته في خليقته.. وإذا كان الأمر بهذه المثابة لم يجز أن يقال: إن القتل أصلهم[٣].

يتضح من هذا المقال المقتضب أن الإسلام حريص على توطيد دعائم السلم والأمن الدوليين، وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على مشروعية الحرب الدفاعية فلايختلف الإسلام في الجملة عن مضمون هذا الميثاق، ويكون السلام في الإسلام أصلاً عامًا أو قاعدة عامة مشروعة، وليس الجهاد إلا لرد العدوان، ومقابلة التحديات، والاعتداء على حرمات الديار والدين والقيم العليا.

---

(٣) مخطوط فتاوى ابن الصلاح، ورقة ٢٢٤.

(مسك الختام)

المذهبية والوحدة الفكرية الإسلامية

محمد سليم العوّا

١- المذاهب الإسلامية الفقهية هي محل النظر في هذه الورقة شديدة الاختصار.

لقد انشغل جيل كامل من طلاب العلم الديني بخلاف بين رأيين أستطيع تلخيصهما في عبارتين، أولاهما تقول إن: المذهبية، بمعنى الالتزام بقول إمام معين في الفتوى، وتقليده في المسائل التي تعرض للمقلّد، بدعة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

والثانية تقول إن: اللامذهبية هي أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية. وكل من أصحاب هذين الرأيين كتب وألّف وتحدّث مناصرًا مذهبه الذي يراه حقًا، مهاجمًا المذهب الآخر الذي يراه باطلاً. وتوزع الناس بين المذهبين ودعاتهما، ولم يحقق ذلك إلا فرقة جديدة بين جماهير المسلمين، وعامة طلاب العلم منهم، لأن الذي يرى ضرورة التقليد المذهبي بقي على حاله، والذي يعتقد بعدم جوازه لم يغير - مهما كانت الحجج التي سيقت - رأيه.

٢- وطالما قلَّبتُ النظر في الرأيين، وتابعت حجج الفريقين، وكنت كلّما فعلت ذلك تساءلت: لماذا لم ينظر أهل النظر منهما في الأثر الذي أحدثته المذاهب الإسلامية الفقهية من حيث تحقيقها الوحدة الفكرية بين جماهير المسلمين، علمائهم وعامتهم، لا من حيث تعصب المتعصبين وانغلاق الجامدين والتهور في القول والفعل

الذي كان ولا يزال يقع بين حين وحين من بعض الغلاة الجاهلين؟

٣- وأيًا ما كان الرأي في مسألة الالتزام المذهبي، فإنه لولا اكتمال بنيان المذاهب الفقهية الإسلامية، وتحديد أصولها الاجتهادية لما استطاع العقل الفقهي الإسلامي، والنظام الفكري الإسلامي، أن يعبّر عن نفسه تعبيرًا يصح أن يسمّى «إسلاميًا»، ولما استطعنا أن نقدّر قرب رأي أو بعده عن الأصول الإسلامية المقبولة، ولما تمكّن العلماء والأصوليون والمفكرون المسلمون، في كل العصور، من البحث المشترك الذي يسمى في الأدبيات الإسلامية باسم المناظرة. وهو العمل العلمي الفكري الذي أوهن كثيرًا من مواضع الخلاف؛ وأبرز كثيرًا من مواطن الاتفاق، وأوقف العلماءَ أنفسهم، فضلاً عمَّن خلفهم من أتباع مذاهبهم، على مواطن القوة في الرأي والصحة في الاستدلال.

٤- فكيف أدَّى اكتمال بنيان المذاهب إلى تحقيق الوحدة الفكرية بين المسلمين؟ إن التعرض لهذه المسألة يقتضي الوقوف على مناهج المذاهب الفقهية في الاستدلال وطرائقها في ترتيب الأدلة. إذ ليست المذاهب في الحقيقة إلاّ نتاج تلك المناهج والطرائق. وتفصيل ذلك يطول، والمكتبة الإسلامية حافلة بالمؤلفات فيه، لكن الغرض الذي ترمي إليه هذه الورقة يتحقق بالإشارة الدالة على ما وراءها من مصادر البحث وكنوز المعرفة الأصولية، والتاريخية الفقهية، الإسلامية .

٥- الاستدلال الفقهي والأصولي عند المذاهب الإسلامية كافة يبدأ بالدليلين النقليين الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية. لا يخالف في هذا أحد من أهل العلم قديمًا وحديثًا. وطالما قرأنا في كتبنا انتقادات توجه للمعتزلة لتقديم العقل في الاستدلال على النقل، فلما نشرت كتبهم الأصلية تبين أن للموضوع في أحيان

كثيرة وجهًا آخر غير الوجه الذي تناوله به خصومهم. ولأضرب مثلاً بمسألة واحدة هي مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودليل وجوبهما. ففي *شرح صحيح مسلم* للإمام النووي نجده ينسب إلى المعتزلة أنهم يقولون بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقلاً لا شرعًا، فيقول: «ووجوبه بالشرع لا بالعقل خلافًا للمعتزلة». فلما نشر كتاب القاضي عبدالجبار *شرح الأصول الخمسة* تبين للباحثين أن المعتزلة لا يقولون بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «عقلاً» وإنما يقولون بوجوبه شرعًا، وأن القول بوجوبه عقلاً على الراجح عندهم يقتصر على حالة واحدة هي «أن يشاهد واحداً يظلم غيره فيلحق قلبه بذلك مضض وحرد، فيلزمه النهي عن الظلم دفعًا لتلك المضرة عن نفسه». ثم يقولون إن الدليل على وجوبه من جهة السمع (أي الدليل النقلي) هو الكتاب والسنة والإجماع. وبعض الباحثين قرروا ـ وكرر من تابعهم ـ أن المعتزلة يخالفون جمهور المسلمين في ترتيب وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فجماهير المسلمين على أن الإنكار أو الأمر يبدأ بالقلب، ثم ينتقل إلى القول باللسان، ثم ينتقل إلى التغيير باليد، وله شروط مفصلة في مواضعها من كتب الحديث والفقه. والحقيقة أن المعتزلة يقولون، في هذا الموضع، بمثل قول جمهور الفقهاء. يقول القاضي عبدالجبار في *شرح الأصول الخمسة*. «واعلم أن المقصود بالأمر بالمعروف إيقاع المعروف وبالنهي عن المنكر زوال المنكر، فإذا وقع الغرض بالأمر السهل، لم يجز العدول عنه إلى الأمر الصعب. وهذا مما يعلم عقلاً وشرعًا؛ فأما عقلاً فلأن الواحد منا إذا أمكنه تحصيل الغرض بالأمر السهل لا يجوز العدول عنه إلى الأمر الصعب، وأما الشرع فهو قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ...﴾.

فالله تعالى أمر بإصلاح ذات البين أولاً، ثم بعد ذلك بما يليه، ثم بما يليه، إلى أن انتهى إلى المقاتلة».

٦- واتفاق الأمة الإسلامية –الذي بدأنا الكلام به– على الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية قبل ما عداهما من الأدلة؛ وتقديم القرآن ـ النص الوحي المنقول إلينا بالتواتر ـ على السنة التي تنوّعت صور نقلها؛ هذا الاتفاق، صنع القاعدة الأولى للوحدة الفكرية الإسلامية. ثم اتفقت المذاهب الفقهية المتبعة على الاستدلال بالإجماع على خلاف بينها في شروط تحققه وإمكانية هذا التحقق بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم. وهذه الخلافات لا تقدح في الاتفاق على أصل الاستدلال بالإجماع، وهو المكون الثالث للوحدة الفكرية بين المسلمين، لا من حيث تفصيلات مواضعه والمسائل التي وقع فيها أو لم يقع، ولكن من حيث تنظيم البنيان العقلي الإسلامي وإقامة النسق الفكري الذي ينتظم فَهمَ علماء المذاهب ويضبط الحركة الفقهية أصولاً وفروعًا.

٧- هذه الأدلة الثلاثة يسميها الأصوليون الأدلة النقلية في مقابلة أدلة أخرى يسمونها الأدلة العقلية، ويدخل في الأدلة النقلية العرف، وهو –باعتباره دليلاً– محل اتفاق بين المذاهب المتبوعة، حتى قيل إنّ «العرف اعتبره الشارع في التشريع، وظل معتبرًا، عمل به الفقهاء في كل عصر. ومنهم من جعله مخصصاً لبعض النصوص.. فإذا كان يستثني بالعرف من القواعد والنصوص العامة فأولى أن يعمل به فيما لم يكن فيه دليل أصلا» وقد علل الإمام السرخسي الحنفي في "المبسوط" جعل العرف دليلاً بقوله: «إن الثبات بالعرف ثابت بدليل شرعي لأن في النزع عن العادة الظاهرة حرجًا بينًا». وهو يشير

بذلك إلى الأدلة النافية للحرج عن العباد من مثل قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وقوله تبارك اسمه: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

٨- فإذا انتقلنا إلى الأدلة العقلية، التي هي مظنة الاختلاف في الأخذ بها أو إنكارها، إذ مناط ذلك هو ما تراه العقول صوابًا أو خلافًا للصواب، والعقول متفاوتة فلابد أن يتفاوت نظرها في أمر الأدلة العقلية؛ أقول إذا انتقلنا إلى الأدلة العقلية وجدنا أمر الاختلاف فيها أيسر مما يبدو للوهلة الأولى. فالقياس و إن اختلف فيه قبل تدوين المذاهب فهو محل قبول الجمهور، والإمامية الذين اشتهر عنهم إنكار القياس يقبلون منه ما كانت العلة فيه منصوصة دون ما كانت العلة فيه مستنبطة (*الذريعة*، السيد المرتضى).

والاستحسان الذي ينسب إلى الشافعي إنكاره هو القول بالهوى والتشهي، لا القول بمقتضى دليل شرعي، كما قول الأحناف والمالكية وغيرهم. ولذلك نقل عن الشافعي نفسه التعبير بلفظ الاستحسان في مسائل عدة وقال أئمة الشافعية بالاستثناء، الذي هو أصل الاستحسان. والاستثناء مقرر في القرآن الكريم نفسه في مثل قوله تعالى: (إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ). (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). وفي السنة النبوية الصحيحة في مثل قوله(ص) بعد تحريم قطع شجر الحرم: «إلا الإذخر» استجابة لطلب عمه العباس رضي الله عنه.

وهذا التقرير أنشأ مبدأ عامًا أو قاعدة كلية مقتضاها وجوب مراعاة المصالح، ودفع الحرج عن الناس؛ ولذلك لجأ الصحابة إلى الاستثناء في مسائل عديدة منها توريث المطلقة في مرض الموت، مع أن الأصل عدم توريثها لزوال موجب الإرث وهو العلاقة الزوجية؛ ومنها

تضمين الصناع، مع أن الأصل ألا يضمنوا لأنهم مؤتمنون والأمين لا يضمن إلا بالتعدي أو التقصير في حفظ ما اؤتمن عليه؛ ومنها تأييد تحريم المتزوجة في أثناء عدتها على من تزوجها معاملة لهما بنقيض مقصودهما، مع أن الأصل أن انتهاء العدة يجعلها حلاً للأزواج. وغير ذلك كثير حكموا به، بلا مخالف بينهم، إعمالاً لمبدأ الاستثناء، وتطبيقاً لما يحقق المصلحة، وهذا هو مناط الاستحسان. وعمل أهل المدينة، الذي انفرد بالقول بحجيته الإمام مالك، رحمه الله، ليس إلا رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده، وأصل العمل بالسنة المروية عن الرسول لا خلاف فيه، إنما الخلاف محله هو: هل العمل بمثابة الرواية أم لا؟ بالأول قال مالك وبالثاني قال جماهير علماء الأمصار، وعبَّر عن رأيهم أحسن تعبير الإمام الليث بن سعد (إمام مصر) في رسالته إلى مالك التي أوردها ابن قيم الجوزية في *إعلام الموقعين*.

٩- وقد كتب أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى الزرقا في مقدمة كتابه القيم: *المدخل الفقهي العام* بحثًا رائعًا بيّن فيه أخذ مختلف المذاهب بالاستحسان، والمصالح المرسلة أو الاستصلاح وأنواع الأحكام التي تبنى عليهما. وقارئ هذا البحث ينتهي إلى أن الشقة غير بعيدة بين المذاهب الفقهية المتبوعة في شأن مصادر الأحكام الشرعية أو أدلتها. وهذه المصادر هي التي يؤخذ منها الحكم بالوجوب أو الحرمة أو الإباحة أو الندب أو الكراهة؛ ومعرفة هذا الحكم، والاتفاق عليه أو الاختلاف فيه، هي السبيل إلى تحديد النسق الفكري الذي يتحرك فيه العقل المسلم فيقبل قولاً أو يأباه، ويتفق مع رأي في مسألة أو يختار حلاً لمشكلة، منطلقًا في ذلك كله وغيره، من الأصول الكلية التي رتبتها في ذهنه الدراسة المذهبية المنظمة. وهي الأصول التي شاعت بين المثقفين المسلمين عامة،

حتى الذين لم يدرسوا منهم دراسة شرعية منهجية، لأن الفقه الإسلامي وأصوله استطاعا أن يسيطرا بمصطلحهما ومفاهيمهما على اللغة الشائعة في المحيط الثقافي الإسلامي كلّه، وصنعا بذلك وحدة فكرية بعيدة المدى، وأوجدا لغة مشتركة بين أهل الإسلام كافة.

١٠- وقد ذكرنا في سياق الحديث تقسيم الأصوليين لمصادر الأحكام أو أدلتها إلى نقلية وعقلية، ومن المهم أن ننقل كلمة جامعة تبيّن العلاقة بين النوعين. يقول الإمام الشاطبي في *الموافقات*: «الأدلة الشرعية ضربان أحدهما ما يرجع إلى النقل المحض، والثاني ما يرجع إلى الرأي المحض. وهذه القسمة بالنسبة لأصول الأدلة، و إلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقول لابد فيه من النظر، كما أن الرأي لا يعتبر شرعًا إلا إذا استند إلى النقل. فأما الضرب الأول فالكتاب والسنة، وأما الثاني فالقياس والاستدلال. ويلحق بكل واحد منهما وجوه، إما باتفاق و إما باختلاف. فليحق بالضرب الأول الإجماع على أي وجه قيل به، ومذهب الصحابي، وشرع من قبلنا؛ لأن ذلك كله وما في معناه راجع إلى التعبد بأمر منقول صرف لا نظر لأحد فيه. ويلحق بالضرب الثاني الاستحسان والمصالح المرسلة...».

وهكذا يتعاضد العقل والنقل ويتعاونان على نحو ما عبَّر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: *درء تعارض العقل والنقل* أو *موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول*.

وعلى هذا الفهم يقوم النسق الفكري والفقهي الإسلامي. وكفى بذلك فضلاً للمذاهب الإسلامية الفقهية. والحمد لله رب العالمين.